الفصل الخامس

باكستان

"لماذا قد لا يصوِّت حجّاجُنا لمصلحتنا؟"

يتَّسم الحجُّ الباكستانيُّ بصبغةٍ من التناقض العميق. إن ما أنجزه ذو الفقار علي بوتو لتشجيع الحج وتطويره يفوق ما فعله سائر حكَّام باكستان في هذه السبيل على مدى تاريخ الأمة كلِّه؛ ففي غضون ستّ سنوات (من 1972 إلى 1977) أوفد بوتو نحواً من 400.000 حاجٍّ إلى مكة المكرمة – أي ما يقارب ما أرسله أسلافه كلُّهم مجتمعين. ومع ذلك لم يكن المستفيدون من إصلاحات الحج التي قام بها بوتو هم أنفسهم مَنْ صوَّتوا له للوصول إلى سدَّة الحكم في سنة 1970، بل إنهم لم يحرِّكوا ساكناً دفاعاً عنه عندما تعرَّضت حكومتُه وحياته للخطر. وواقع الأمر أن العديد من المناطق التي استفاد المسلمون فيها كثيراً من فُرَص الحج الجديدة هي ذات المناطق التي شهدت مظاهراتٍ شعبيةً حاشدةً أسهمت في قلب نظام حكم بوتو سنة 1977، ومن ثم تنفيذ حكم الإعدام فيه بعد ذلك بسنتين.

وبالعودة إلى الوراء يتَّضح أن بوتو كان ينتظر الكثيرَ من الحج؛ وأعجب من ذلك استمرار التزام أخلافه بالمنهاج الأساسي المتمثِّل في اغتنام الحج لتحقيق مكاسب سياسية. فبعد أن تقلَّدت بناظير بوتو مسؤولياتِ والدها

في الحكم تمكَّنت من قيادة حزب الشعب الباكستاني Pakistan People's Party (PPP) في أربعة انتخاباتٍ وطنية، ففازت في عامي 1988 و1993 لكنها خسرت في عامي 1990 و1997. وفي كل انتخاب كانت أصواتُ حزب الشعب على مستوى المنطقة مرتبطةً سلباً بدرجة المشاركة في الحج.

وعلى الرغم من هذه النتائج المخيِّبة ما برح حزبُ الشعب ساعياً إلى حشد أكبر وفود الحج كلَّما تولّى هذا الحزبُ زمامَ الحكومة الفدرالية. وبكل الثقة تؤكِّد بناظير بوتو ومستشاروها أن الناخبين من المسلمين لا بد أن يَخِفُّوا - عاجلاً أم آجلاً - لنصرتهم عند صناديق الاقتراع عرفاناً بتسيير رحلات حجٍّ ضخمةٍ ومكلفة تتولّى الدولةُ تنظيمها وتمويلها.

لماذا إذن كان ذو الفقار علي بوتو مسرفاً في المراهنة على الحج إلى هذا الحدّ؟ وما هي أسباب إخفاق سياسته؟ ولماذا يتشبَّث خالِفوه بتركةٍ يبدو أنها تخدم مصالح منافسيهم أكثر مما تخدم مصالحهم هم؟

رأى بوتو في الحج أمراً مهمّاً جدّاً من نواحي عدة، وعلى الصعيدين الداخلي والخارجي على السواء. وقد ساعده ذلك على إظهار صورته الأولى كاشتراكيٍّ مثيرٍ للشغب، ثم على إعادة تشكيل نفسه كمنادٍ بمبدأ المساواة الإسلامية التي تتَّفق مع القيم التقليدية لعامة الشعب. كذلك مهَّدَ الحجُّ السبيلَ لتحالف بوتو مع فيصل ملك المملكة العربية السعودية، ولقيامه بزياراتٍ لستٍّ وثلاثين دولةً إسلامية في الوقت الذي مسَّت فيه حاجةُ باكستان إلى الدعم الخارجي للتغلُّب على الفقدان المهين لبنغلادش[1].

إلا أن عدداً من القادة الدينيين في باكستان وجدوا في استيلاء بوتو على الحج اغتصاباً للسلطة، وسادَ الاعتقاد لدى معظم العلماء الناشطين سياسياً بأن بوتو لا يدعم المؤسسات الإسلامية إلا لأنه يريد السيطرة عليها. وعندما أقدمت حكومتُه على تأميم مئات المصارف والشركات خشيت هذه

المصالحُ من أن يكون ذلك جزءاً من خطةٍ حكوميةٍ لتقييدها إذا قَضَتْ هذه الخطة بوضع مزاراتها ومساجدها ومدارسها تحت إدارةٍ مركزيةٍ هي وزارة الشؤون الدينية.

وهذا ما دعا أعداءَ بوتو إلى الردّ بعنف، فراح العلماء يرصُّون الصفوفَ مع الأحزاب اليمينية، دافعين بآلاف الطلبة الدينيين إلى الشوارع، ومطلقين موجةً من الشغب في طول البلاد وعرضها بدعمٍ ماليٍّ من الشركات التي سئمت ما يمارسه عليها البيروقراطيون في حزب الشعب الباكستاني من مضايقات. ولمّا خاف بوتو ألا يكون قادراً على تحقيق ثلثي الأغلبية البرلمانية التي يحتاج إليها ليتمكَّن من تعديل الدستور حسب مشيئته، أقدم على التلاعب بانتخابات سنة 1977[2]. ثم إنه طلب من الجيش فرْضَ القانون العُرفي بعد أن عجزَ عن إخماد فورة الهياج العارمة التي تلت. وفي هذه المرحلة بات بوتو تحت رحمة الجنرال ضياء الحق، الذي لاحظَ مساعي حزب الشعب لإحداث قوات ميليشيا خاصةٍ به كمصدر تهديدٍ للقوات المسلَّحة وللنخبة من الإدارة المدنية – وهي بمنزلة "الإطار الفولاذي" للكادر الإداري الذي يبدو عازماً على حكم البلاد مهما كان الحزب الفائز في الانتخابات.

وبعد أن عُزِل بوتو على يد الجيش ونُفِّذ فيه حكم الإعدام، استهلَّ ضياء الحق عهداً من الفاشستية المتسلِّطة فيما يتَّصل بمجموعةٍ من الإصلاحات الإسلامية الزائفة التي استعملت الدين لتسويغ قمع المعارضة وجمع الثروة. واجتهد ضياء الحق في شراء صمت المؤسسة الدينية، إلا أنه لم يولِ الحجَّ كبير اهتمام لأنه رأى فيه مضيعةً للعملة الصعبة التي من الأجدر إنفاقها على شؤون الدفاع والتنمية. لكنه، مع تحسُّن الأحوال الاقتصادية في حقبة الثمانينيات من القرن الماضي، رفعَ من عدد الحجاج الباكستانيين، ولا سيما أولئك الذين في وسعهم شراء دولاراتهم وريالاتهم السعودية من الخارج لا من داخل باكستان.

وهكذا أمسى الحج في ظل حكم ضياء الحق رمزاً لقابلية التحرُّك الاجتماعي والارتباط السياسي[3]. وبدأ الحجُّ ينتقل باطِّراد - شأن سائر مظاهر الازدهار والسلطة عموماً - نحو إقليم البنجاب، ولا سيما المدن الواقعة في الشمال الشرقي، والمحاذية للطريق الرئيسية Grand Trunk Road بين إسلام آباد ولاهور. وفي مقابل ذلك شهدت مناطق بلوتشستان والسند الريفية الشديدة الفقر (وهي معقل حزب الشعب) هبوطاً كبيراً في معدَّل الإقبال على الحج قياساً على المستوى الذي وصل إليه في ظل حكم بوتو. وبوفاة ضياء الحق سنة 1988 أظهرت خريطةُ الحج المناطقية دولةً عميقة التصدُّع وقد استحكمت فيها مظاهر التفاوت بين مختلف الجماعات العرقية واللغوية حتى حوَّلتها إلى مقاطعاتٍ إقليميةٍ ذات طبقاتٍ اجتماعيةٍ منغلقة.

ثم انتُخِبت بناظير بوتو رئيسةً للوزراء، فكان من أُولى إصلاحاتها إعادة سياسات الحج المنفتحة إلى سيرتها في عهد أبيها. ومع أن ولايتها الأولى لم تدم أكثر من سنتين، فقد تمكَّنت من إرسال 100.000 حاجٍّ أو يزيد في سنة 1990، متخطِّيةً العدد الذي أرسله والدها من قبل، وممارِسةً ضغطاً على خصوم حزب الشعب الباكستاني للسير على سَنَنها عندما تولّوا زمام الحكم من بعد. ويُذكر أن أكبر منافس لبناظير بوتو في تشجيع الحج كان نواز شريف رئيس الرابطة الإسلامية الباكستانية Pakistan Muslim League، الذي تناوبَ معها الانتصاراتِ الانتخابيةَ في سياق معاركه السياسية التي كان يخوضها مع الجنرالات الذين حاولوا حكمَ الدولة من خلف الكواليس. ومع أن حزب الشعب هو الذي تولَّى تسييسَ الحج، إلا أن نواز هو الذي جنى أجزل المنافع في الانتخابات.

تركَّزت الدائرةُ الانتخابيةُ الرئيسية لنواز في المدن والبلدات المزدهرة من إقليم البنجاب. وقد ارتبط اسم نواز - الرجل الصناعي الثريّ من لاهور، الذي اصطنعه ضياء لنفسه واختاره حاكماً لهذا الإقليم - ارتباطاً وثيقاً

بالنهضة التي شهدها قطاعُ الأعمال الخاصة في باكستان، وكذلك بموجة الانتعاش الاقتصادي التي دفعت بمنطقته إلى الأمام متقدِّمةً على المناطق الأخرى. ومن المعروف أن البنجابيّين لا يؤلِّفون إلا أغلبيةً ضئيلةً من إجمالي عدد السكان (نحو 55 بالمئة)، إلا أنهم مع ذلك يؤلِّفون زهاء ثلثي العدد الفعلي للأصوات المنتخِبة.

والحجاج كلُّهم ناخبون محتملون، غير أن البنجابيّين الأثرياء نسبياً هم الذين استفادوا أكثر من غيرهم من الفرص المتزايدة لزيارة مكة المكرمة. أولئك البنجابيّون الأغنياء الذين كانوا يملكون أسبابَ السفر إلى الخارج هم أنفسهم الناخبون الذين حقّقوا لائتلاف نواز من الأحزاب المحافِظة والدينية أغلبيةً نسبيةً لا يستهان بها. وأسهمت حملاتُ الحج الكبرى في تعزيز قبضة نواز على جمهور الناخبين البنجابيّين، ومن ثم على الحكومة المركزية.

ومع ذلك فإن معظم الناخبين، حتى في إقليم البنجاب، هم ممَّن لم يؤدوا فريضةَ الحج ولكن يطمعون. فثمة ملايين من المسلمين الذين لا يؤمِّلون أن يصبحوا في عداد الحجيج ما لم تأخذ الحكومةُ على عاتقها تقديمَ جملةٍ من الخدمات والمعونات، مثل رفع الأنصبة النسبية لعدد الحجيج، وتوفير العملات الأجنبية، وتخفيض أجور الإقامة. وتتجلَّى أهميةُ هذه الحوافز بنوعٍ خاص للحجاج المأمولين من الإناث أو من أهل الأرياف، لأن هؤلاء هم في الواقع أول المتضرِّرين عندما تكون سياساتُ الحج أكثر تقييداً، وأول المستفيدين عندما تغدو السياساتُ أكثر تراخياً.

من ناحيةٍ أخرى يؤلِّف الناخبون من الإناث وأهل القرى قطاعات من جمهور الناخبين البنجابيّين لا تربطها علاقاتٌ ثابتةٌ بأيّ حزبٍ سياسيٍّ[4]. فعلى مدى سنواتٍ عديدة واستطلاعات الرأي العام توحي لبناظير ونواز أن هذه المجموعات هي من الناخبين المتردّدين أو غير المضمونين. ومع أن العديد من هذه الاستطلاعات قد جرى بإشراف مستشاري نواز، إلا أن حزب الشعب الباكستاني كان أكثر من أسعدتهم النتائج.

ولما كان كثيرٌ من الناخبين غير الملتزمين في إقليم البنجاب هم أيضاً حجّاجٌ محتملون، فقد شعر أنصارُ بناظير أنهم أمام فرصةٍ ذهبيةٍ لإضعاف موقف نواز في عقر داره، فخاض حزبُ الشعب والرابطةُ الإسلامية أعنف معاركهما الانتخابية في نحو عشر مناطق بنجابية، حيث لم يتعدَّ هامشُ الفوز نسبة 5 بالمئة. وفي المنافسات المتعادلة النتائج اعتقدَ قادةُ حزب الشعب أن وعودهم بسياسات حجٍّ منفتحة قد تثمر في استمالة الناخبين المتردّدين لترجيح الميزان.

وقد بات حزب الشعب على يقين من أن الحفاظ على الروح التنافسية في البنجاب مسألةُ حياةٍ أو موت. فمع انعدام فرص فوز بناظير في هذا الإقليم المحوري من باكستان لم يبقَ لها إلا ما يزيد قليلاً على قاعدتها التقليدية في منطقة السند الريفية. وبعد أن صار حزبُ الشعب أقليةً دائمة أصبح آيلاً إلى حزب معارضةٍ إقليميةٍ لا أكثر. وهذا يعني أن بناظير ستكون في وضعٍ لا تُحسد عليه: بين مطرقة المتزمتين في الحكومة المركزية الخائفين من وقوع تمرُّدٍ انفصاليٍّ شامل، وسندان المتطرفين السنديين الذين يصوِّرون الانهيارَ السياسيَّ لعائلة بوتو دليلاً على أن ليس ثمة أحد من الجنوب سيُسمح له يوماً بحكم دولةٍ يهيمن عليها البنجابيون.

وبعد عودة باكستان إلى الديمقراطية في سنة 1988 أثمرت استراتيجيةُ بناظير أكثر من أي وقتٍ مضى، وتمكَّن حزبُ الشعب من بناء ائتلافٍ واسع يضمُّ الجيوبَ القديمة للقوة في المدن إلى ما توفِّره الأقليات الدينية واللغوية في جنوب البنجاب وغربه من دعمٍ جديد. وقد انطمست هذه المكاسب مؤقتاً بعد أن أقصيت بناظير عن السلطة سنة 1996، إلا أن أنصارها سرعان ما أعادوا تنظيم أنفسهم بعد أن أطاح الجنرال بيرفيس مشرَّف بنواز شريف سنة 1999.

ويرفض قادةُ حزب الشعب أن يُنعَتوا بالإقليمية أو أن يُسقِطوا أيَّ إقليمٍ باعتباره بعيداً عن متناولهم، بل كان مستشارو بناظير - وعلى العكس تماماً -

يستمرئون إزعاجَ قادةِ الأحزاب المنافِسة في عقر ديارهم. وبات حزبُ الشعب الباكستاني عازماً على اجتذاب ناخبين متديِّنين من الرابطة الإسلامية، وهو الآن على قناعةٍ تامةٍ بأن الحجَّ جسرٌ طبيعي إلى ذلك الجمهور من الناخبين.

إلا أن المسألة التي هي أكبر من ذلك لا تتعلق بإخفاق حزب الشعب أو نجاحه، بل بقدرة باكستان على تجاوز الانفعالات التي يثيرها كلٌّ حزب مستعيناً بالمغريات الطائفية والعِرقية. وليس الحجُّ إلا مثالاً لأكثر المعارك وضوحاً بين الأحزاب الضعيفة ومجموعات الضغط سعياً إلى الهيمنة على الرموز والمؤسسات الإسلامية بكامل أطيافها. وإن كلاً من هذه المعارك حقيقٌ بأن يزيد من وطأة الانقسامات القديمة العهد والعميقة الجذور فيما بين المجموعات اللغوية والمصالح الاقتصادية والتقسيمات الجغرافية. وبقطع النظر عن الطرف الغالب في ناحيةٍ معيَّنةٍ من السياسة الإسلامية، فإن التقاطع الدائم للخصومات الدينية والاجتماعية حريٌّ بأن يُبرِزَ مواطنَ ضعف الدولة ويُنذِرَ بانمحاقها.

الدولة الإسلامية والصراع على السلطة

وُلدت باكستان دولةً إسلامية، إلا أن سكانها قضوا النصفَ القرن التالي في مناقشاتٍ تناولت ما يعنيه ذلك عملياً[5]. وتعبِّر الرؤى المتضاربة لمبدأ "الأسلمة" Islamization عن مصالح سماسرة السلطة الذين يسيطرون على المناظرة – من جنودٍ ومُلاّك أراضٍ ومفكِّرين وعلماء، إضافةً إلى المجموعات العِرقية التي نشؤوا عنها. ويبدي المشاركون في المناظرة مزيجاً مستساغاً من المثالية والشكوكية. وفي هذا الصدد أذكر أن صديقاً لي – وهو من علماء الدين التقليديين – أهدى إليَّ يوماً نسخةً من مقالةٍ كان قد نشرها للتوِّ في مجلَّة معروفة، وحملت المقالةُ هذا العنوان:"الطرائق الإسلامية للأسلمة". وعندما سألتُه مستوضحاً: "هل تقصد أن الباكستانيين قد استنبطوا طرائق «غير إسلامية» للأسلمة" أجاب: "بالطبع؛ إنَّ كلَّ ما نجرِّبه يندرج تحت ذلك التصنيف".

ويُظهر الباكستانيون ازدواجيةً في تناولهم لصلة الدين بالسياسة فيما يتعلق بتطوُّر بلادهم، فيعدُّون أنفسهم موفَّقين إذ مَنَحَهم الإسلامُ هويةً فريدة، وفرصةً لاستكشاف التجارب التي من شأنها أن تبعث الإلهام في نفوس المسلمين في شتى أنحاء الأرض. إلا أنهم مع ذلك يشتكون من أن قادة باكستان أقلُّ اهتماماً بالإسلام "الحقيقي" منهم بالترَّهات التي يسمّيها أتباعهم تهكُّماً: "الإسلام الخطابي". وبالإشارة إلى الفجوة القائمة بين المثاليات الإسلامية والأيديولوجية الإسلامية، يرى كثيرٌ من الباكستانيين أن التعبير عن مسائل سياسية باستعمال مصطلحاتٍ دينية هو بالذات نقطة ضعفهم. ومما يؤسَف له حقاً أن باكستان بدأت مجتمعاً لا يعلو على الدين فيه أيُّ شيء، وأنها اليوم مجموعةٌ من القبائل والطوائف المتناحرة التي يعلو فيها على الدين كلُّ شيء.

إن الإسلام يسيَّس عن طريق صراعٍ بين الدولة والجماعات ذات النفوذ، من مثل جمعيات العلماء ومُلاّك الأراضي الصوفيّين والجمعية الإسلامية. ولا شك أن الحج هو من أهم الرغائب في هذا الصراع، ولاسيما للقادة في سدَّة الحكم، الذين يفضِّلون نيل مغانم ظاهرة على مصالح عميقة في هذا المضمار.

وتؤثِّر الجماعاتُ الإسلامية في سلطة الدولة عبر جميع القطاعات التي توجد لهذه الجماعات فيها مصلحةٌ حيوية، من قبيل رسم دستور الدولة، وحقوق الأقلّيات غير المسلمة، والبحوث والمنشورات الإسلامية، والأوقاف، والمساجد، والمدارس الشرعية، والصدقات. أما في شأن الحج فقد انتقلت الحكوماتُ المتعاقبة من مرحلة التنظيم إلى الرعاية المالية الكاملة والتحكُّم المباشر دون معارضةٍ تُذكر.

وعندما تتغيَّر سياساتُ الحج في باكستان، فذلك ليس لأن الحكام يحاولون استرضاء الفقهاء والمتطرفين، بل لأن لكلِّ حكومةٍ سلَّماً لأولوياتها واستراتيجياتها في اكتساب التأييد الشعبي. من هنا تجد أن بعض أنظمة

الحكم ربما تقلب ما يتَّخذه بعضُها الآخر من قراراتٍ في مسائل الحج الهامة من مثل حجم حملات الحج وتكاليف المعونات المالية الحكومية والخدمات وتمثيل الأقاليم والتقسيمات الاجتماعية. ومع ذلك، ومهما كانت الصيغة التي يختارها الساسةُ الباكستانيون، فإنهم يطبِّقونها مباشرةً عن طريق الاتصال بالحجاج المحتملين أنفسهم، لا بالشخصيات الدينية التي تدَّعي تمثيلهم أو التحدُّث باسمهم.

ومع أن الحكومات لا تواجه مقاومةً تُذكَر في الاضطلاع بشؤون الحج، فإن تحكُّم الدولة في معظم جوانب الحياة الدينية أمرٌ ينطوي على صعوبةٍ أكبر. وقد وَضَعَ كلُّ نظام حكمٍ مجموعةً مختلفةً من الإصلاحات الإسلامية وأسلوباً متميِّزاً لإدارة القادة الدينيِّين. ولطالما هاجمت الدولةُ العلماءَ التقليديين والأئمة الصوفيّين والإصلاحيِّين المتزمِّتين ممَّن تحرَّوا تحويلَ المصادر الدينية إلى قوةٍ سياسية، وأحرزوا نجاحاً فعلياً في ميادين كثيرة. لقد أصبحت الجماعاتُ الإسلامية معتمدةً على المعونات الحكومية، ومنقسمةً بتأثير المنافسات الحزبية فيما بينها إلى حدٍّ جعلها تتقبَّل سيطرةَ الدولة أكثر فأكثر بدلاً من أن تقاومها.

إلا أن الهجوم على القادة الدينيين كان من شأنه أيضاً أن يؤجِّج في نفوسهم الروحَ العدوانية ويجعل منهم خصوماً ومناوئين. ومع تقلُّص حجم نفوذهم، فهم يمارسونه بصورةٍ أبعد أثراً وأدعى إلى الهدم والتخريب، وذلك عن طريق تأليف الأحلاف وإطلاق العنان للعنف في الطرقات، في محاولةٍ للتعويض عن تشرذمهم وضعفهم في المجالس الرسمية المنتخَبة.

ثمة أربع مجموعاتٍ هيمنت على المناقشات التي أفضت إلى بزوغ الدولة الإسلامية[6]. فمعظم رجال الفكر (ممَّن تلقوا تعليمهم في بريطانيا)، الذين قادوا أوائلَ الأحزاب وألَّفوا أوائلَ الحكومات، كانوا حلفاء لمؤسِّس باكستان الأول محمد علي جناح [Muhammad Ali Jinnah [1876-1948، ومؤيِّدين

لنظام حكمٍ برلماني تسوسه مبادئ إسلاميةٌ غامضة يفسِّرها الشارع كيفما يشاء. وتمكَّنت هذه المجموعةُ من اجتذاب مجدِّدين إسلاميِّين عصريِّين استجابوا لدعوة محمد إقبال إلى إحداث إصلاحٍ ديني عن طريق إحياء عوامل التفكير المستقل والديمقراطية التي رأوا فيها جوهرَ التعاليم الإسلامية الأصيلة.

وظهرت مجموعتان معارضتان تحبِّذان الرؤيةَ القائمةَ على الحكومة الدينية، فانبرى معظمُ العلماء يدافعون عن ضرورة الاستمرار في تطبيق التعاليم التي تناقلتها الأجيال عن قدماء رجال القانون من العصور الوسطى، وراحوا بالفعل يعيدون تنظيم تلك التعاليم المتفرقة إلى قوانين مترابطة ستمثِّل شريعةَ البلاد. وباعتمادهم على خبرتهم في تفسير التشريع الإسلامي فرضَ العلماءُ سيطرتَهم على الهيئات التي أوجدت دستورَ باكستان ومنظوماتها القانونية. وكان منافسهم وأقوى حلفائهم ما يسمى "جماعاتي إسلامي" Jamaat-i- Islami، وهي حركة إصلاحية متطرفة تستمد نفوذها من الطبقة المتوسطة في المدن من أنصار مولانا مودودي .Maulana Maududi وتقضي تعاليم جماعاتي إسلامي – خلافاً لجماعة العلماء – بإقامة التشريع الإسلامي دون الاستناد إلى ميراث آراء الفقهاء السابقين، بل عن طريق الدراسة المباشرة للنصوص الدينية التي تؤلِّف أساسَ الدين، والمتمثِّلة بالقرآن الكريم والسنَّة المطهَّرة. ومع أن جماعة مودودي قد أعلنت استقلالها عن التعاليم المتعارفة، فقد أصرَّت على دراسة النصوص الدينية عن كثب، بصورةٍ حملتها على مناصرة العلماء في وجه المجدِّدين المحدثين والعلمانيين. ومع تزايد هيمنة الساسة البريطانيّي النزعة التعليمية، تنامت روحُ التحدّي لدى العلماء وجماعاتي إسلامي أكثر فأكثر. وكان حريّاً بهم الضغط على الهيئات الدستورية، إلا أنهم آثروا التحوُّل إلى هياجٍ جماهيري، وأطلقوا حملاتٍ مناوئةً للطائفة الأحمدية Ahmadi sect المنشقَّة التي تأسست في أواخر القرن التاسع عشر، أملاً في حمل الحكومات الضعيفة على الوقوف إلى جانب الأقلّية التي لا تحظى بشعبيّةٍ واسعة.

تعرَّضَ الأحمديون للنقد بسبب تشكيكهم بتمام نبوَّة محمد ﷺ، وكذلك بسبب اقتصارهم على ممارسة التجارات والمهن الخاصة بأثرياء الناس. وكان كثيرٌ من العلماء الذين قادوا موجات الشَّغب المناهضة للطائفة الأحمدية قد عارضوا مطلب جناح في إقامة دولةٍ إسلامية خشية ألا يتمكَّنوا من تسلُّم زمام قيادها. وباستهدافهم الأحمديين كانوا يلتمسون استعادةَ مؤيِّديهم، وهكذا تزعزعت مصداقية حقِّهم الديني بانحيازهم إلى جانب الاضطهاد، إلا أن عنفهم كان خطير الأثر على الديمقراطية الجديدة لباكستان. وعندما وقعت مواجهاتُ عنفٍ بين الحكومات المدنيّة والمتطرِّفين بادر الجنرال أيوب خان إلى إقامة إدارة قانونٍ عرفي ما لبثت أن تحوَّلت إلى حكومةٍ عسكريةٍ مكتملة في سنة 1958.

فاقَ أيوب خان غيرَه من الحكام الباكستانيين في مجابهة السلطات الدينية وجهاً لوجه؛ فأزاح معظمَ العلماء التقليديين لمصلحة نخبةٍ مختارةٍ من المفكِّرين والتقنيِّين الذين فسَّروا الإسلام بما يخدم برامجه الهادفة إلى التنمية الاقتصادية السريعة. وفي مضمار الإصلاح الديني كان أيوب أنموذجاً للجندي المجدِّد؛ ففي حين راح يطبِّق القانونَ الجديد على الأوقاف الدينية والصدقات، وَضَعَ مئات المساجد والمزارات تحت تصرُّف الدولة، وألزمها بأداء دورٍ خدميٍّ مزدوج: كأن تكون مراكز لمحو الأميّة للراشدين، ومواقع زراعية فرعية في الوقت نفسه[7].

وفي أعقاب هزيمة باكستان في حربها مع الهند سنة 1965، أثارت رغبةُ أيوب في إحداث تجديدٍ ديني انتقاداتٍ عنيفةً من المتزمتين المتمسِّكين بالمأثور أسهمت في وضع نهايةٍ لنظامه المتقلقل أصلاً. وكان من محطات الانتقاد الأولى معهد البحوث الإسلامية Islamic Research Institute القائم على مجموعةٍ من العلماء الذين يقدِّمون المشورة للحكومة فيما يتصل بمدى موافقة برامجها لتعاليم الإسلام، والممثِّل في الوقت نفسه للقوّة التي سعى

العلماءُ جاهدين للاحتفاظ بها لأنفسهم في مناقشاتهم المريرة التي سبقت أيوب. إلا أن مدير المعهد، البروفسور فضل الرحمن، اضطرَّ إلى الفرار من البلاد عندما أهدرت المجموعةُ المتزمِّتة دمه بسبب تسويغه التعامل بالفائدة المصرفية وتشجيعه على إعطاء تفسيراتٍ حرَّةٍ للقرآن الكريم. وما لبث أيوب نفسه أن صار هدفاً لأحداث تمرُّدٍ شعبيٍ نشأت عن مظالم تجاوزت حدودَ النزاعات الدينية للنخبة. ومن ثم فإن المطالب المكبوتة غير المعلنة بالديمقراطية في غرب باكستان، وبالاستقلال في شرقها أطاحت أيوب من السلطة في سنة 1969، فحاول الضباط الذين هم أصغر منه أن يستبدلوا به الجنرال يحيى خان.

تلا ذلك هزيمةٌ عسكريةٌ أخرى تولَّدت عنها بنغلادش، وآلت السلطةُ على الأثر إلى ذو الفقار علي بوتو الذي آثر - خلافاً لسلفه المستبدّ أيوب خان - النأي بنفسه عن العلماء ما استطاع، واسترضاءهم عند الضرورة. ثم إنه بذلَ وسعَ طاقته لإقناع عامة الشعب بأنه مسلمٌ ملتزم، بقطع النظر عمّا عُرِف عنه من أفكارٍ ومبادئ يسارية أو من انغماسه في الشراب والتبذُّل مع النساء. وإضافة إلى سعيه إلى الخروج بمظهر أعظم مسؤولٍ باكستانيٍّ مشجِّعٍ للحج، قام بترميم عددٍ من المزارات الصوفية المعروفة، وبإخراج طبعةٍ وثقى من القرآن الكريم، وابتعاث عمّالٍ مهاجرين إلى منطقة الشرق الأوسط. وفي مقابل كل هذه اللفتات لم يشعر بوتو قطّ بأنه مؤهَّل بما يكفي لمواجهة المتطرِّفين الإسلاميين؛ ففي الدستور الذي صيغت مسوَّدتُه سنة 1973 مَنَحَهم انتصاراتٍ رمزية: معلناً الإسلام ديناً للدولة ومشترطاً أن يكون رئيسُ الدولة ورئيس وزرائها من المسلمين. على أن بوتو خضَع سنة 1974 لإرادة المتطرِّفين الذين جدَّدوا حملاتهم على الأحمديّين.

أما ضياء الحق - وخلافاً لأيوب خان الذي استخفَّ بالمتزمتين التقليديين، وبوتو الذي كان يخشاهم - فقد عَرَفَ كيف يؤلِّب بعضهم على

بعض؛ فحاول التودُّد إلى العلماء بتقديم معوناتٍ ماليةٍ وتوفير فرص عمل لهم مقابل استغلال مشاعر التحاسد في نفوسهم. وكان من أهم إصلاحاته الإسلامية خطةٌ لتحويل مصادر دخل مشايخ المسلمين إلى الدولة ثم توزيعها على الجماعة المخلصة من الخطباء والطلبة والموظفين. كذلك حوَّل ضياء الزكاةَ من حسناتٍ اجتهاديةٍ شخصية إلى ضرائب إلزاميةٍ محدَّدة تُدفع إلى هيئات جبايةٍ إقليمية مرتبطةٍ بإسلام آباد مباشرة[8].

تعهَّد ضياء بتقديم مساعداتٍ مالية لفقراء الطلبة في المدارس الدينية، شريطة أن تُحدِث هذه المدارس تغييراتٍ في مناهجها الدراسية وكوادرها التعليمية، وهو إجراء كان العلماء يقاومونه طوال سنواتٍ عديدة. ولكي يجعل الأمر مستساغاً وعدَ ضياء باعتبار شهادة الدبلوم التي تمنحها المدارس الإسلامية معادلةً لشهادة الدبلوم الممنوحة من المدارس العامة لأغراض التوظيف الحكومي. وكنتيجةٍ لذلك لقي التسجيل في المدارس الدينية إقبالاً شديداً في ثمانينيات القرن العشرين، أغرقَ سوقَ العمل بخرّيجين سرعان ما اكتشفوا أن ضياء لم يعطِ ضماناً بقدرة الدولة على الوفاء بسداد رواتبهم الشهرية.

على أن الإصلاح الإسلاميَّ الذي انتهجه ضياء الحق ساعد في إنشاء أحلافٍ سياسية دامت إلى ما بعد وفاته، ومنحت أعداء حزب الشعب استمراريةً تنظيميةً لافتة في ظلّ حكوماتٍ عسكريةٍ ومدنيّة. وقد ورثَ ضياء تأييده الإسلاميَّ من حلف باكستان الوطني Pakistan National Alliance – وهو الائتلاف اليميني الذي قاد الثورةَ المناهضة لبوتو في سنة 1977 – وكانَ كثيرٌ من موظفيه رجالَ أعمالٍ وساسةً سبقَ أن عانوا من موظفي بوتو وزبانيته. وعندما عادت الديمقراطية سنة 1988 انضمَّ صنائعُ ضياء إلى رابطة نواز شريف الإسلامية، وواصلوا الخدمةَ في البرلمانات ومجالس الوزراء على مدى العقدين اللاحقين.

رحلات الحج في مجتمعٍ منقسمٍ عرقياً

كان تنامي الحج الباكستاني مواكباً دوماً لصراعات السلطة والتغيُّرات الأيديولوجية التي صاغت الأنظمةَ السياسية في باكستان وهدمتها. وكان الحج قبل سنة 1970 في حالة تقلُّب مستمرٍ وغير منتظم[9](الشكل 1-5)؛ فقد لوحظ أن كلَّ زيادةٍ بسيطة تلاها تناقصٌ مفاجئ يتزامن مع الصدمات العنيفة التي تعرَّضت لها الدولة الفتيَّة: كاندلاع أعمال الشغب المناهضة للطائفة الأحمدية، وإعلان حكومة أيوب خان العسكرية، وحرب سنة 1965 مع الهند.

وكان انتصار حزب الشعب الباكستاني في انتخابات سنة 1970 نقطةَ تحوُّلٍ حاسمةً في تطوُّر الحج الباكستاني، إذ ارتفعت نسبة رحلات الحج مباشرةً، وبلغت أعلى مستوياتها إبان مرحلة القنوط التي تلت فقدان بنغلادش.

يُذكر أن السنوات الأولى من سبعينيات القرن الماضي شهدت أوسع نشاطٍ لبوتو في السفر إلى الخارج، ومحاولاتٍ مستميتةً منه لخلق شخصيةٍ إسلاميةٍ متميِّزة. وتداخلت ذروةُ فعالية الحج مع الاستعدادات التحضيرية لمؤتمر القمة الإسلامي الذي عُقِد في لاهور سنة 1974، حيث تباهى بوتو باستضافة رؤساء الدول الإسلامية في كنف الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية وباسمه، وردَّ هذه المجاملةَ حينئذٍ بتغيير اسمِ ثالث مدينةٍ كبيرةٍ في باكستان لتصبح فيصل آباد على شرف الملك وعرفاناً ببادرته، وكذلك بإرسال بعثات تدريب إلى المملكة لرفد القوات المسلحة هناك.

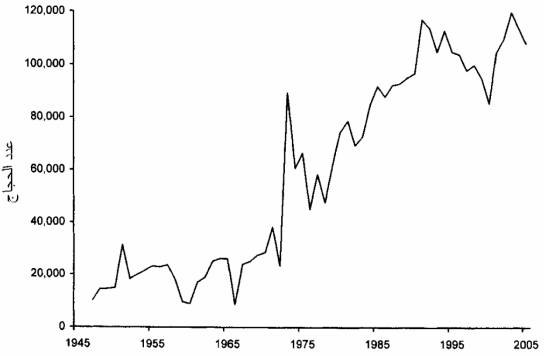

الشكل 1-5 تنامي الحج في باكستان بين عامي 1947 - 2004

وفي ذلك الوقت أيضاً منحَ بوتو بلادَه واحدةً من أحدث منظومات العالم في إدارة الحج، فأحدثَ مديريةً مستقلَّةً للحج تابعةً لوزارة الشؤون الدينية، ووفَّر التمويلَ اللازم لعمليات اختيار الحجيج مركزياً وحاسوبياً، كما أنشأ معهداً خاصاً لتدريب حملات الحج الباكستانية الضخمة على أساليب التقيُّد بالنظام وحسن التصرُّف لدى الوصول إلى الأراضي المقدّسة. وتتبدّى أهميةُ منجزات بوتو بنوعٍ خاص بملاحظتها من منظور فعالية الحج الفردي، لا من حيث العدد الإجمالي للحجيج (الشكل 5.2). فقد كانت معدَّلات الحج الباكستانية في ظل حكم بوتو أعلى 3 – 4 أضعاف منها في ظل حكم سالفيه. وبسقوطه من سدَّة الحكم شهد الحج الباكستاني فتوراً في معدَّلاته، ولم يعد إلى سابق عهده إلا بعد مرور زمنٍ طويل.

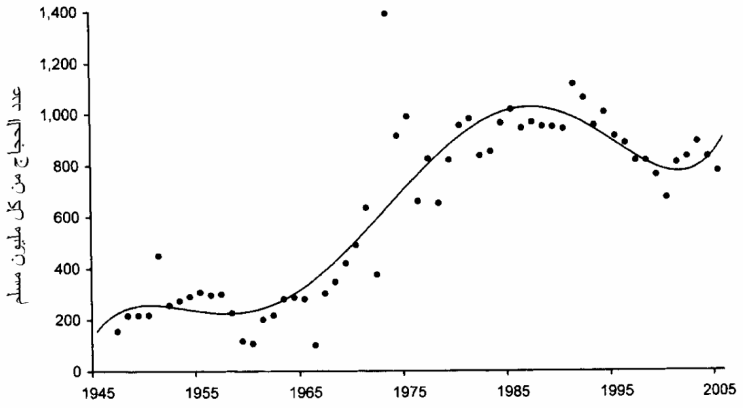

الشكل 2-5 معدّلات الحج الباكستانية ما بين عامي 1947 – 2004

أما ضياء الحق فقد خفَّض تكاليف الحج باعتماد نظام اختيارٍ ذي مستويين، يفرض عقوبةً على الحجاج الذين يحصلون على ما يلزمهم من القطع الأجنبي من المصرف المركزي. ولم يخفِّف ضياء من وطأة هذه القيود إلا في المرحلة الأخيرة من حكمه عندما كان الاقتصاد الباكستاني في أوج نشاطه. لكن معدَّلات الحج لم تصل – حتى في تلك الحقبة النشطة – إلى مبلغ ما وصلته في السبعينيات. ثم تولَّت بناظير بوتو أولَ حكومةٍ لها، ففاقت

بسرعة كلَّ منجزات ضياء في مضمار الحج، ومع ذلك فإن أحداً من الحكام الباكستانيين لم يتمكن من مجاراة المستوى القياسي الذي حقَّقه والدها سنة 1973. صحيح أن ما وظَّفه ضياء الحق من أموالٍ في سبيل الحج أقلُّ بكثيرٍ مما وظَّفه ذو الفقار علي بوتو، إلا أن الأثر الذي تركه كان بالدرجة نفسها من العمق. ففي حين أحدث بوتو ثورةً شاملةً في نظام الحج، أعاد ضياء بهدوء صوغَ الجذور الاجتماعية لحملات الحج الباكستانية.

ومن بين الأساليب المحددة التي اتَّبعها ضياء في توفير المساواة الاجتماعية أنه ضيَّق الفجوة بين الجنسين في اختيار الحجاج الباكستانيين[10] (انظر الجدولين A 1-5 وA 2-5). فعلى مستوى الدولة عموماً لم ترتفع نسبة الإناث من الحجاج إلا بنحو 5 بالمئة في غضون عقد الثمانينيات الماضي، على حين تقلَّصت أسوأ مظاهر التفاوت الإقليمي تقلُّصاً كبيراً. ويلاحَظ أن أكبر مكاسب النساء كانت في الأقاليم النائية المنعزلة، كمنطقة بلوتشستان الداخلية والمناطق القَبَليّة الجبلية الواقعة على امتداد الحدود مع أفغانستان.

على إن الإصلاحات التي حقَّقها ضياء في مضمار الحج كانت على وجه العموم محابيةً للقويّ على حساب الضعيف. فقد قام ضياء، إضافةً إلى رفع تكاليف السفر إلى الخارج، بإلغاء نظام بوتو للأنصبة النسبية في اختيار المتقدِّمين استناداً إلى منطقة انتماء كلٍّ منهم، لا استناداً إلى قدرته على الدفع. وهكذا بات الحجُّ في عهد ضياء صورةً للتفاوت الاجتماعي المتنامي في باكستان. وإذ أصبحت التنميةُ الاقتصاديةُ أكثرَ ظهوراً من الناحية الجغرافية، فقد كرَّس الحجُّ الثغرات التي كانت تسيء إلى العلاقات بين المناطق والمجموعات العِرقية[11].

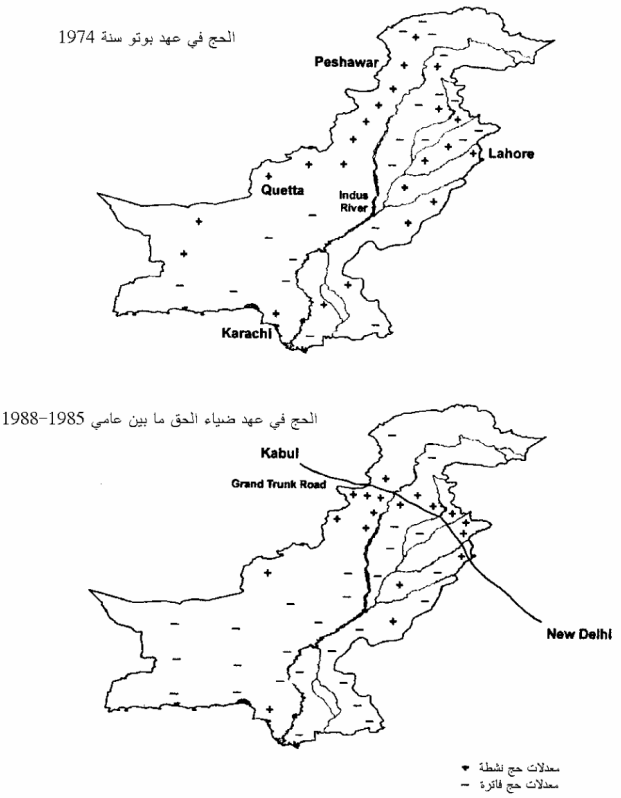

الشكل 3-5 نماذج جغرافية للمشاركة في الحج في ظلّ حكومتَيْ ذو الفقار علي بوتو والجنرال ضياء الحق

وقد تغيَّرت المعايير الجغرافية المتَّصلة بالحج تغيُّراً كبيراً بين عامي 1970 و 1990[12] (الشكل 3-5). ففي عهد إدارة ذو الفقار علي بوتو لم يحدث أن استأثر إقليمٌ بعينه على الحج، بل إن مناطق ذات حجٍّ نشيط وأخرى ذات حجٍّ فاتر تتخطَّى الحدودَ الإقليمية، مبرزةً الفوارق بين المسلمين المقيمين قريباً من حدود باكستان الدولية النَّفوذة، وسكان المناطق الداخلية المنعزلة. ومن ثم كان الحج نشطاً على امتداد رقعة المناطق المتاخمة لأفغانستان وإيران والمناطق الشرقية المجاورة للهند، على حين كان أقل نشاطاً في وادي نهر إندوس ولاسيما في المناطق الواقعة على الرافد السفلي للنهر (الشكل 4-5).

ومع انتهاء حكم ضياء انقسمت الدولةُ بين شمالٍ وجنوب، وتحوَّل المحورُ الرئيسي للمشاركة بالحج إلى الطريق المسمى Grand Trunk Roadالذي يصل بين بيشاور ولاهور. وعلى امتداد هذا الممرّ التجاري الهام فاق نشاطُ الحج كلَّ ما عداه من تطوُّراتٍ في باكستان كلِّها. ومع ذلك فإن عدداً قليلاً فقط من مناطق الجنوب هي التي احتفظت بحجٍّ نشيط. أما مدينتا كراتشي وكويتا فتبدوان كجزيرتين نشطتين في بحرٍ من اللامبالاة بشأن الحج. تشاركهما في ذلك مدينتا ملتان وباهاوالبور، وهما مركز إدارة عددٍ من أقوى مؤسسات العلماء والصوفيّين في باكستان.

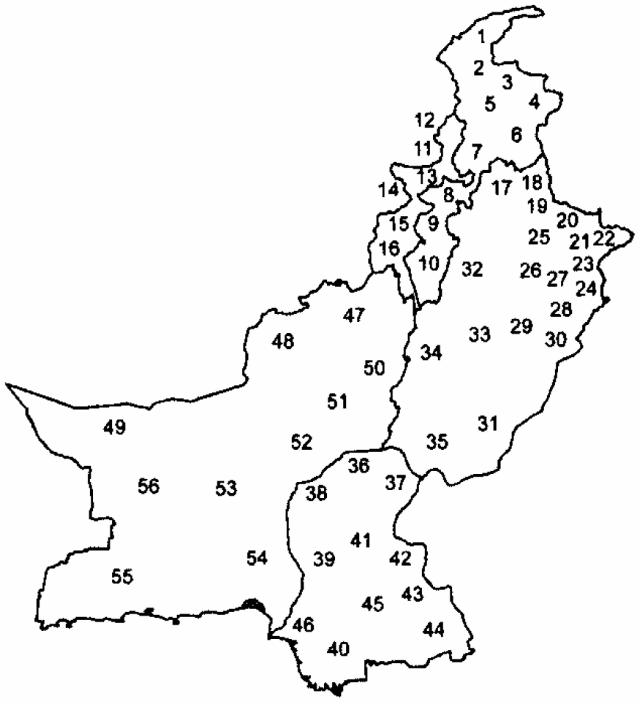

الشكل 4 –5 أقاليم باكستان

إقليم الحدود الشمالية الغربية	إقليم البنجاب	السند	بلوتشستان
1 تشيترال	17 أتوك	36 جاكوب آباد	47 زوب
2 دير	18 راولبندي	37 سوكور	48 كويتا
3 سوات	19 جيلوم	38 لاركانا	49 تشاغاي
4 هازارا	20 كوجرات	39 دادو	50 لورالاي
5 مالاكاند	21 كوجرانوالا	40 ثاتا	51 سيبي
6 ماردان	22 سيالكوت	41 نوابشاه	52 كاتشي
7 بيشاور	23 شيخ هوبورا	42 خيربور	53 كالات
8 كوهات	24 لاهور	43 سانغهار	54 لاسبيلا
9 بانو	25 ساركودا	44 ثارباكار	55 ماكران
10 دير إسماعيل خان	26 جانغ	45 حيدر آباد	56 كاران
	27 فيصل آباد	46 كراتشي	
المناطق القَبَلية	28 ساهيوال		
11 موهماند	29 ملتان		
12 باجور	30 باهاوالناجار		
13 كايبر	31 باهاوالبور		
14 كورّام	32 ميانوالي		
15 شمال وزيرستان	33 موزافارغار		
16 جنوب وزيرستان	34 ديرا غازي خان		
	35 رحيمبار خان		

شهدت المنطقةُ المركزية للحج الضعيف في وادي إندوس توسُّعاً في اتجاهاتٍ عديدة، فاستغرقت كامل إقليمي السند وبلوتشستان، ووصلت إلى الجزء الجنوبي من إقليم البنجاب حيث تلتقي الروافد العليا لنهر إندوس.

وقد بدت محاباة ضياء الحق لإقليم البنجاب بأوضح صورها في المناطق الريفية لا في المدن (الشكل 5-5). فكان التطورُ الاقتصادي في إقليم البنجاب الريفي أكثر انتشاراً واستمراراً منه في قرى الأقاليم الأخرى

وبلداتها الصغيرة. وفي عهد أيوب خان ظهرت في ريف البنجاب طبقةٌ قوية من صغار المُلاّك الفلاحين، مَنَحَها المخطِّطون في حكومة ضياء الحريةَ الكاملة في تطوير مشروعاتٍ كبيرة وأكثر فاعلية[13].

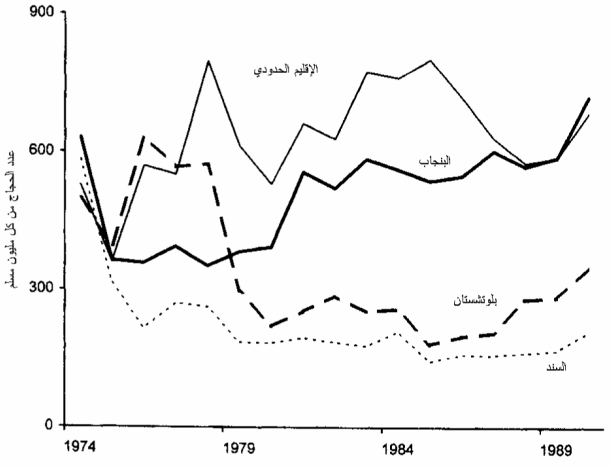

الشكل 5-5 الحج في مناطق الريف من باكستان ما بين عامي 1974 - 1990

وأسهمت مشروعاتُ التطوير الحكومية والأموالُ المحوَّلة من العمَّال المهاجرين إلى دول الخليج العربي في تغيير وجه الريف البنجابي. وكانت الاستثمارات المالية حافزاً قوياً على انطلاق مشروعاتٍ زراعيةٍ مكلفةٍ جداً، وربط الأسواق الإقليمية بطرقٍ حديثة ووسائل نقل جديدة، وإطلاق موجةٍ عارمةٍ من الازدهار العمراني. وبحلول سنة 1990 غدا أهلُ القرى والمدن البنجابية يُقبلون على الحج إقبالاً متزايداً، وبتواتر أعلى حتى من الباشتون الملتزمين من سكان الإقليم الشمالي الغربي الحدودي North-West Frontier Province (NWFP).

وازدهر الإقليم الحدودي في عهد ضياء أيضاً ولكن بدرجةٍ أقل؛ فقد أفادت مناطقُ عديدةٌ تتاخم أفغانستان من الحرب الطويلة مع نظام كابول المدعوم من الاتحاد السوفييتي آنذاك - تلك الحرب التي أسفرت عن تدفُّق مليوني لاجئٍ أفغاني عبر هذا الإقليم، كان بعضُهم من ذوي الأموال

والارتباطات التجارية التي مكَّنتهم من إقامة شركاتهم الخاصة والمطالبة بحصَّةٍ من عوائد تهريب الأسلحة وتجارة المخدِّرات وغير ذلك مما كانت تمارسه قبائل الباشتون منذ عقود من الزمن.

إلا أن المكاسب التي وفَّرتها الحربُ الحدودية لا ترقى إلى درجة المكاسب الدائمة والواسعة النطاق للثورة الخضراء في البنجاب. ففي حين ارتفعت معدَّلاتُ الحج باطِّراد في الريف البنجابي، كانت في حالة تقلُّبٍ بين ارتفاعٍ وهبوطٍ في الإقليم الحدودي. وبوفاة ضياء كان إقبال سكان الأرياف على الحج في كلا الإقليمين متعادلاً تقريباً.

أما الجهاتُ الخاسرة في عهد ضياء فكانت قرى وقبائل إقليمَي السند وبلوتشستان الداخليَّيْن، إذ أصبحت أريافُ السند - وهي من أهم قواعد حزب الشعب الباكستاني - أضعفَ مصادر الحج الباكستاني. وبانتخاب بناظير بوتو رئيسةً للوزراء سنة 1988 كانت فعاليةُ الحج في إقليمها واهنةً لا تكاد تتجاوز المستوى الذي بلغته في باكستان عموماً سنة 1958.

بل لقد كان تقلُّص فعالية الحج في إقليم بلوتشستان على نحوٍ أسرع، فقد حاول ذو الفقار علي بوتو طمس النعرة القومية هناك بفضِّ المجلس المحلّي، وبإرسال ثلاث فرقٍ من الجيش لإخماد التمرُّد القبَلي المحتدم في وسط بلوتشستان[14]. إلا أنه مع ذلك شجَّع رحلات الحج من شمال وغرب الإقليم - وهي مناطق يسكنها الباشتون في المقام الأول، إضافةً إلى مستوطنين ناطقين بالبنجابية والأوردية. أما ضياء فلم يستأنف العمليات العسكرية الواسعة النطاق في أرياف بلوتشستان، غير أنه أهملَ هذه المنطقة إهمالاً كبيراً حملَ السكان - حتى من غير أهل الإقليم - على شدّ الأحزمة وإرجاء حجِّهم.

وبعودة الديمقراطية أصبحت المظالمُ الناشئةُ عن اللامساواة معلَنَةً، فتفاقمت بذيوعها الخلافاتُ الداخليةُ المستعرة أصلاً بسبب نزاعاتٍ دينيةٍ

قـديمة العـهـد. وبات من المألوف اليـوم أن تسـمع من مـواطني السند وبلوتشستان أنهم يحاربون النموذجَ نفسه من التمييز العنصري الذي تجيزه الدولة، والذي أهلك سكان أمريكا الأصليين وغيرهم من الشعوب البالدة[15].

كذلك يبدو التقدُّمُ المطَّرد لإقليم البنجاب جليّاً من خلال توجُّهات الحج في المدن الكبـرى (الشكل 6-5). فـمن بين المدن البنجـابيـة الأربع الكبـرى يلاحَظ أن الحجَّ في حالة نشاط في العاصمة الوطنية إسلام آباد - راولبندي بصفة خاصة، حيث يُمنَح الجنودُ والموظفون إجازات حجٍّ ومعونات مالية لهذه الغاية. ويلاحَظ أيضاً أن فعالية الحج أضعف بكثير في مدينة ملتان حيث تنصهر حياة المدينة في الحياة الريفية الفقيرة.

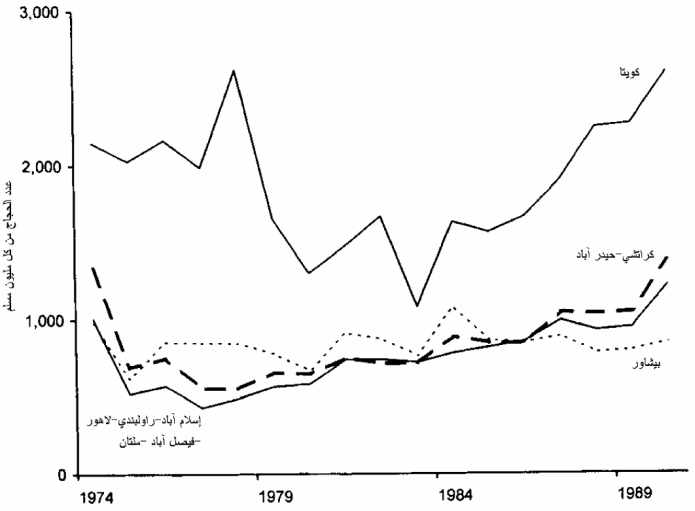

الشكل 6-5 الحج في مناطق المدن من باكستان ما بين عامي 1974 - 1990

ويجدر القول إن الحج كان أسرع ازدهاراً في المراكز الصناعية الجديدة المتوسطة المساحة، التي تكتنف طريق غراند ترانك (المذكور آنفاً)، منه في كبريات المدن القديمة كلاهور وفيصل آباد. ومن المعلوم أن شمال شرق البنجاب غنيٌّ بمئات المصانع التي تنتج عدداً لا حصر له من المصنوعات

البسيطة والمعقدة، بحيث أن الدخل المرتفع والمكانة المرموقة سرعان ما يترجمان إلى دُورٍ فارهة مزوَّدة بأحدث الأثاث والتجهيزات. ويستتبع ذلك بالطبع زيارات عائلية إلى الديار المقدسة بقصد الحج والعمرة.

وفي منتصف عقد الثمانينيات الماضي تجاوزَ تنامي الحج في المدن البنجابية معدَّلاتِ تناميه في بيشاور عاصمةِ الإقليم الشمالي الغربي الحدودي والمركز التاريخي للتعليم الإسلامي العالي في باكستان. ويُذكر أن الحرب في أفغانستان قد جلبت إلى بيشاور من المكاسب الاقتصادية غير المنتظَرة ما ظهر منها في المناطق المتاخمة على امتداد الحدود. إلا أن بيشاور كان عليها أن تتحمَّل قسطاً أكبر من أعباء الحرب وتبعاتها بالنظر إلى كونها مركزَ معالجة الجرحى وإيواء المشرَّدين. ولم يُجْدِ تدفُّقُ المساعداتِ إليها من إسلام آباد ومن الخارج في سدِّ النقص الكبير في بنيتها التحتية.

وقد وُجد أن تنامي الحج في مدن البنجاب أشبه ما يكون بارتفاع معدَّلاته في كراتشي وحيدر آباد، الحاضرتين الجنوبيَّتين اللتين كانتا مثابةً لأكبر تجمُّعٍ للمهاجرين من الهند والناطقين باللغة الأوردية. وكان الجيلُ الأول من أولئك المهاجرين أكثر غنىً وأوفر تعليماً من السنديين الأصليّين الذين أقام المهاجرون بين ظهرانيهم، وما لبثوا أن تقمَّصوا دَوْر التجَّار والملاّك الهندوسيّين الذين فرّوا بعد التقسيم. وأيقن الناطقون بالأوردية في غضون العقدين الأخيرين بأن تفوُّقهم المحلّي قد اضمحلَّ مع تدفُّق جماعاتٍ عِرقيةٍ أخرى إلى مدن السند، ومع إقدام الميليشيات المنافسة من المهاجرين على إفناء القسم الأعظم منهم في حروبٍ أهليةٍ متتابعة[16].

على أن المركز المديني الوحيد الذي ما انفك يوفِّر دعماً للحج أقوى من البنجاب هو كويتا عاصمة إقليم بلوتشستان، وحامية بريطانية سابقة للدفاع عن ممرّ بولان Bolan Pass (الجبلي) وطرق التجارة البريّة من أفغانستان وإيران. ويروق سكانَ كويتا وصفُ مدينتهم - تفكُّهاً - بأنها "هونغ كونغ

باكستان"، باعتبارها منفذ الدولة الوحيد الذي تتدفق عبره مختلف السلع الاستهلاكية ما دامت الحكومة تتحلى بالحكمة في تجاهل عمليات التهريب الكبيرة التي توفِّر للبلاد العملاتِ الأجنبيةَ وتخفِّف في الوقت نفسه من وطأة الحاجات غير المعلنة للطبقة المتوسطة.

ولما كانت مدينة كويتا معروفةً بتطوُّرها السريع، فهي تجتذب المستوطنين من شتى أمصار باكستان، علماً بأن أكبر مجتمعات كويتا هي من الباشتون والبنجابيين والمهاجرين. إلا أن واحداً منها لا يؤلِّف أغلبية، بل إن كويتا هي إحدى مناطق قليلة من باكستان لا يمكن لمجموعةٍ لغويةٍ فيها أن تدَّعي لنفسها السيادة عددياً أو سياسياً. وفيما عدا المناوشات العَرَضيّة مع بعض المعارضين الشيعة بحكم القرب من إيران، فإن كويتا مثالٌ للتسامح مقارنةً بالاضطراب الذي يسود مدينة كراتشي التي هي أكبر مساحة، وتُعَدُّ بوتقة انصهار مختلف الأعراق.

ولئن كانت كويتا ذات ثقافاتٍ متعدّدة وأسواقٍ حرّة، فإن وراءها شبكةً من المحسوبية الحكومية تربط سكانَ بلوتشستان من الباشتون بأعلى مستويات بيروقراطية الحج في إسلام آباد. فالموظف المسؤول عن تصريف شؤون مديرية الحج رجلٌ قوي - في بنيته وشخصيته - من سكان كويتا الباشتون، ومن صلاحياته توظيف ملاك إدارته إضافةً إلى عددٍ من أبناء بلدته المتحمِّسين في موالاتهم لحركة الباشتون القومية التي تحقِّق تقدُّماً وتحرز نجاحاً في شمال بلوتشستان.

وأذكر أن أحد أفراد حاشيته المخلصين كان مصرّاً على إبلاغي بتواصل المؤامرة الأنغلو - أمريكية لإخضاع دولة الباشتون عن طريق تقطيع أوصال أراضيها في أفغانستان وباكستان. فقد حدث في يومٍ أن كنّا نتناول الغداء عندما تناول ذلك الشخص منديلاً ورقياً نَشَرَه ورسمَ عليه خريطةً لما يأمل أن يصبح عمّا قريب دولةً مستقلَّةً للناطقين بلغة الباشتو. وأطلق على تلك

المنطقة – شأن ما يفعله معظم الوطنيين الباشتون في أيامنا هذه – اسم باكتونكوا Pakhtunkhwa، الذي يعني شيئاً من قبيل "مستقر الباشتون"، بدلاً من المطالبة الصريحة بكيانٍ لدولةٍ ذات سيادة عبَّرت عنه كلمةٌ أقدم من هذه هي باكتونستان Pakhtunistan التي تعدُّها الحكومةُ المركزيةُ مصطلحاً تحريضياً ينادي باسترداد أرضٍ من الوطن مسلوخةٍ عنه[17].

ولطالما سمعتُ الباشتون مختلفين في الرأي حول رسم حدود باكتونكوا المفتَرضة. فقد قال معظمُ قادة الأحزاب في بيشاور إنَّ الحدَّ الأدنى لا يتعدّى أن يكون باكتونكوا هو الاسم الجديد للإقليم الشمالي الغربي الحدودي (NWFP)، في حين يفصح حزبُ أوامي الوطني ومنافسوه في حزب باكتون كاوا ميلي أوامي (PKMAP) عن أهدافٍ أبعد طموحاً ترمي إلى توحيد المناطق ذات الأغلبية الباشتونية في إقليمٍ واحدٍ لا يفوقه مساحةً وقوةً سوى إقليم البنجاب، بحيث يستغرق كامل الأراضي الواقعة بين كويتا وحدود باكستان الشمالية مع الصين وطاجكستان.

ومع ذلك فإن هذه الرؤى القصوى لحدود باكتونكوا في حدٍّ ذاتها تُعدُّ متواضعةً إزاء ما رسمه لي شخصياً مدير الحج المساعد على مقربةٍ من وزارة الشؤون الدينية، إذ لا تنتهي خطَّته عند رسم حدودٍ إقليمية، بل إنها تعيد رسمَ الحدود الدولية من أساسها بطريقةٍ تنطوي على التحدّي لباكستان ولجملة الدول المتعدّدة الأعراق في جنوب وأواسط آسيا.

عوامل حاسمة في تحديد فعالية الحج:

الصفة العِرقية والتنمية الاقتصادية والتصويت الحزبي

إن من شأن النزاعات الإقليمية في باكستان أن تعطي صورةً للآثار التراكمية للفوارق العرقية والاقتصادية والسياسية، إذ تؤثِّر هذه العواملُ مجتمعةً في درجة الإقبال على الحج. وبالموازنة بين المناطق الجغرافية التي

تحتلُّها المجموعات العرقية الخمس الرئيسية في باكستان يتَّضح تماماً أن الحج تتباين معدَّلاتُه تبايناً كبيراً كما تتباين المشيراتُ الأخرى المتَّصلة بالتنظيم الاجتماعي والسياسي[18] (الجدول A 4 - 5).

والصفة العِرقية من أقوى المشيرات إلى مدى فعالية الحج في باكستان (الجدول A 1 - 5). وإذا أجرينا تصنيفاً للمناطق الباكستانية الاثنتين والستين بحسب اللغات الغالبة على سكانها وجدنا أن الناطقين بلغة الباشتو واللغة البنجابية قد أوفدوا من الحجيج إلى مكة المكرمة ما بين عامي 1974 و 1990 أكثر من نصيبهم المفروض، في حين أوفد الناطقون بالسندية والبلوتشية أقلَّ من نصيبهم بكثير. يلاحَظ أيضاً أن الناطقين بالأوردية قد تخطَّوا معدَّلهم بقليل، وأن المناطق الناطقة بالسيرايكية قد توافقت تقريباً مع المعدَّل العام للدولة. وهكذا ترى أن الفروق بين مستويات حج المجموعات العرقية صارخة كما الفروق بين مستويات الحج بين الأقاليم.

ويرتبط الحج كذلك بعدة تدابير تتعلق بالتنمية الاقتصادية[19](الجدول A 4 - 5)؛ فيكون في حدوده الدنيا في مناطق التجمُّعات الكثيفة لعمال الزراعة. ويلاحظ أن هذا الأثر السلبي للزراعة أثرٌ ملحوظٌ على نطاق الدولة برمَّتها برغم التفاوت الكبير في نوعيات الزراعة: فمعدلات الحج ليست أعلى في مناطق زراعة الأرز والسكر منها في مناطق زراعة القطن والقمح، واعتماد الأساليب الحديثة في الزراعة بدلاً من الأساليب التقليدية لا يفضي إلى تزايد عدد الحجيج إلا بدرجةٍ ضئيلة. إن الحجَّ حريٌّ بأن يزكو حيث يوظف المزارعون أموالهم في آلات الحراثة والآبار، لا حيث يكون اعتمادهم على السَّماد والريّ.

ثم إن ملكية الأرض من المزايا الزراعية التي تساعد على تعرُّف السكان الريفيِّين على اختلاف ميولهم لأداء الحج. ويلاحَظ أن ملكية الأراضي المقصورة على قلّةٍ من الأشخاص توهن من نشاط الحج، وأن مساحة المَزارع

أقلُّ أهميَّةً من كون المزارعين يملكون الأرض التي يعملون فيها. فالحج ينشط حيث يكثر الملاّك – العاملون، ويضعف حيث تسود الزراعة المأجورة. والملكية الفردية تشجِّع الحج بين المزارعين جميعاً على السواء مهما كان انتماؤهم الإقليمي أو العِرقي؛ فمزارعو الباشتون في المناطق الجدبة الواقعة جنوب بيشاور يؤدُّون الحج أكثر من صنوانهم في الأراضي الخصبة الواقعة في مناطق مارادان ووادي سوات. كذلك فإن عدد الحجاج من المزارعين البنجابيّين الذين يجهدون في كسب أرزاقهم في هضاب آتوك وتشاكوال الصخرية أكبر بكثير من نظرائهم في الحقول المفتوحة لساركودا وجانغ.

وبالانتقال إلى خارج القطاع الزراعي، تجد أن المنظومات الاقتصادية ذات التوجُّهات الخدمية تذكي فعالية الحج أكثر مما تفعل مراكزُ التصنيع. وينشط الحج بنوعٍ خاص حيث تكون الحكومةُ هي المستثمر الأكبر – في إسلام آباد – راولبندي والحواضر الإقليمية الأربع وبالقرب من القواعد العسكرية. ولوحظ أيضاً أن بعض معدلات الحج العليا تتركز في مناطق تستضيف أكبر تجمعات الجنود.

يضاف إلى ذلك أن كثيراً من أشكال التعليم ووسائط الاتصال الجماهيرية تشجِّع بدورها فعاليةَ الحج، ولاسيما التسجيل في المدارس الثانوية وحيازة أجهزة التلفزة. ففي ثمانينيات القرن العشرين تزايدت أهمية محو الأمية في اللغتين الأوردية والإنكليزية باطِّراد، إلا أن القدرة على قراءة أجزاء من القرآن الكريم باللغة العربية هي من أفضل المشيرات إلى ازدهار فعالية الحج، بحيث يرتبط محو الأميّة القرآني ارتباطاً وثيقاً بالحج عند الإناث والذكور، وعند أهل الريف وأهل المدن على السواء. وتتبدَّى قوةُ هذا الارتباط في الإناث من سكان أرياف البنجاب والمناطق شبه الحضرية فيه. ومع أن أولئك النساء قد سجَّلن معدَّلاتٍ أدنى بكثير في محو الأميّة من الذكور، فإنهن يعرفن عموماً كيف يقرأن القرآن الكريم، ويؤدّين الحجَّ بوتيرةٍ قد تعادل وتيرة أداء الذكور له.

وارتفعت أهميةُ عنصر التمدُّن باعتباره عاملاً محدِّداً لنشاط فعالية الحج، إلا أنه لم يكن ليجاري التدابير الشاملة في ميدان الصحة العامة والنقل من مثل عدد أسرَّة المشافي وسيارات النقل. ويبدو أن تنامي الحج قد تجاوز المدن الكبرى في باكستان، شأن معظم مظاهر الحضارة الحديثة هناك. فيلاحَظ أن نشاط الحج واضحٌ بنوعٍ خاص في المدن المتوسطة المساحة وعواصم الأقاليم، حيث تتمازج المجتمعات الحضرية والريفية. أما أوساط المدن الصغيرة فتجمع إلى توسيع الإمكاناتِ الاقتصاديةِ والتغيُّر الاجتماعيِّ تمسُّكاً ثابتاً بالتقاليد الدينية. فإنك كثيراً ما ترى – في مدينةٍ تلو أخرى – أن عمّال البناء جادُّون في إنشاء معالم بارزة لا تخطئها العين للطبقة الوسطى، كالمدارس الشرعية والمساجد والمحلاّت التجارية التي مُلِئَت واجهاتُها بالملابس والحاجات لحجّاج العام التالي.

وكلَّما تمكَّن الباكستانيون من الإدلاء بأصواتهم في انتخاباتٍ حرّة كان التأييد للأحزاب السياسية الرئيسية مرتبطاً بعلاقةٍ متلازمةٍ مع الحج[20](الجدول A 5 - 5)؛ فمنذ سنة 1970 والتصويت لحزب الشعب الباكستاني مرتبط عكساً بفعالية الحج، مع أن بناظير بوتو أصابت نجاحاً أكبر مما أصاب أبوها. وبعد وفاة ضياء انتقلت مكاسب الحج السياسيةُ من الأحزاب الدينية الصغيرة إلى الربطة الإسلامية التي يرأسها نواز شريف. وأبدت المناطقُ التي تتمتع بفعالية حجٍّ عالية شيئاً من التحامل على حزب الشعب، إلا أنها كانت متحيِّزةً إلى نواز أكثر من كونها معارضةً لبوتو.

هذه العوامل الثلاثة – التصويت الحزبي والنزعة العِرقية والتنمية الاقتصادية – مجتمعةً تفسِّر نحو نصف التباين الحاصل في معدّلات الحج (الجدول A 6 - 5)، علماً بأن هذه المتغيِّرات تحمل آثاراً تكاد تكون متساوية: فلربما كانت النزعةُ العرقيةُ في بعض الأحيان أقوى، والتصويت الحزبي أضعف شيئاً ما، إلا أن الفوارق تبقى على وجه العموم طفيفة ولا يمكن

ترتيبها وفقاً لدرجاتٍ ثابتة، إذ إن لكلّ عاملٍ منها إسهامٌ خاصٌّ متميِّزٌ في الحج لا يمكن عزوه إلى غيره.

الحج وحُلْم حزب عموم باكستان

يؤلِّف الدِّينُ والنزعة العِرقية، في أيامنا هذه أكثر من أي وقتٍ مضى، القوةَ الغالبة التي تسيِّر المعاركَ الانتخابيةَ في باكستان. فبقوم كلُّ حزبٍ ببناء أساسه على مجموعةٍ أو طائفة، بحيث يكون مركزُ الثقل في منطقةٍ معيَّنة. ولم يلاحَظ أن حزباً ما قد استطاع تخطّي أساسه الطائفي بهدف استقطاب تأييدٍ قويّ من قطاعاتٍ من المقترعين في أقاليم أخرى. ثم إن القوة المتنامية للهوية الطائفية تعود بالنفع على عددٍ من الأحزاب، الكبيرة منها والصغيرة، في حين تكون الضحيَّة الأولى لها هي حزب الشعب الباكستاني. ففي حين أحكمتِ الرابطةُ الإسلامية برئاسة نواز شريف قبضتَها على الأغلبية البنجابية، ووجدت أعدادٌ كبيرةٌ من المجموعات المنشقَّة مواطئ راسخةً لها بين الأقليات المضطهَدة، عانى حزبُ الشعب من انتكاسةٍ كبرى أصابت طموحَه البعيد في بناء أول حزبٍ باكستاني يستغرق البلاد بأسرها.

وكان قادةُ حزب الشعب الباكستاني مدركين تماماً لحاجتهم إلى استراتيجية حملةٍ وطنية. على أن معقل بوتو في ريف السند كان أصغر وأفقر من أن يصلح أساساً لحكومةٍ مركزية، إضافةً إلى أن منطقة السند وحدها لا تؤلِّف أكثر من نحو خُمس جمهور الناخبين حتى مع إدخال جميع ناخبي مدينة كراتشي في الحساب. ويتعذَّر على حزب الشعب أن يتولى الحكم إلا بتنظيم ائتلافٍ متعدِّد الأعراق يمكنه إقصاء المقترعين بعيداً عن الأحزاب المحلّية ذات النفوذ، لاسيما في البنجاب والمنطقة الحدودية. غير أن بناء مثل هذا الائتلاف يستلزم بالمقابل عوامل أيديولوجية لاستمالة الناخبين المتردّدين في كلِّ إقليم. وقد اختار ذو الفقار علي بوتو وبناظير بوتو كلاهما مزيجاً غامضاً من الاشتراكية والإسلام كوسيلةٍ منظورة لحزبٍ جماهيريٍّ

معتدلٍ منتظَر. ومن شأن ذلك أن يكون عبئاً على أي مؤسسةٍ سياسية، إلا أنه يمثِّل تجربةً مثيرةً عندما يرى الحُلُمُ الشعبيُّ في أول عائلةٍ تنبثق عن الحزب أسرةً إقطاعيةً من الحكّام اعتادت أن تعيش وفقاً لقواعدها الخاصة. لقد كان تنظيم موارد الدولة على خلفية حجٍّ جماهيري ضربةً موفَّقة لمصلحة عائلة بوتو من عدة وجوه.

وقد ضربت مديريةُ الحج مثلاً صالحاً للخدمات المتنامية التي طلبَ حزبُ الشعب في بياناته الانتخابية من الحكومة تطبيقها في شتى جوانب الاقتصاد. وعندما يربط المخطِّطون الاستراتيجيون في الحزب عائلةَ بوتو شخصياً بقضايا الحج، فإنهم بذلك يسلِّطون وهجَ الاشتراكية والإسلام على أسرةٍ إقطاعيةٍ قويةٍ معروفةٍ بخبرتها التجارية أكثر مما هي معروفة بالتزامها الديني. وكانت معوناتُ الحج التي منحها حزبُ الشعب للناخبين المتردِّدين حافزاً آخر لهم لتحدِّي أرباب الأعمال المحلِّيين، وساعدت في إيجاد مناطق انتخابية محتملة فيما كان في يومٍ من الأيام معاقل مناوئة.

ومع أن تشجيع الحج يؤلِّف طرفاً مهماً من استراتيجية حزب الشعب الباكستاني منذ عقد السبعينيات الماضي، فإن بناظير تستعمل رمزية الحج ببراعةٍ أكبر مما عُرِف عن أبيها في ذلك. فقد اتَّبع بوتو الأب الأسلوبَ التقليديَ المتمثِّل في تقديم الحج على أنه قوّةٌ جامعة من شأنها أن تساعد في حشد أكبر جمهرةٍ من الناخبين من مختلف الجماعات والطوائف العِرقية. أما بناظير فتربط الحجَّ بالضعفاء والمضطهَدين مقابل الأثرياء وذوي الامتيازات. وفي حين اعتمد ذو الفقار علي بوتو على الحج لاستحداث حزبٍ جماهيري ومن ثَم لمِّ شعث دولةٍ كانت تبدو آيلةً إلى الانهيار، استغلَّت بناظير الحجَّ لإقصاء الجماعات واحدةً بعد أخرى بعيداً عن فلك مناوئيها وتأليفهم في حلفٍ للحركات المعارِضة تحت راية حزب الشعب.

كذلك عوَّلت بناظير على الحج لطمأنة المسلمين المتشكِّكين إلى أن حزب الشعب حزبٌ يتَّقي الله بإمكانهم الوثوق به. إلا أنها ناشدت الملايين من

التوّاقين إلى الحج ممَّن يخافون ألا تتاح لهم أبداً فرصةُ الوصول إلى مكة المكرمة بسبب تجاهُل ضياء وخالفيه لهم. ويرسم حزبُ الشعب لكل أقلّية سياسات متحرِّرةً ومغرية، برهاناً على التزامه بالأخذ بأيدي مَنْ هم خارج السرب إلى الانضمام إليه. وعلى حين ركب ذو الفقار علي بوتو موجةَ الحج لوضع نفسه ضمن التيار السياسي السائد، ركبت بناظير هذه الموجة لمساعدة الجماعات المضطهَدة على دخول التيار الاجتماعي والاقتصادي السائد.

وفي ظل حكم بناظير يظهر نشاطُ حزب الشعب جليّاً بصفةٍ خاصة بين جماعات أربع هي: الباشتون في بيشاور وما حولها، والجماعة الناطقة بالسيرايكية في جنوب إقليم البنجاب، والشيعة في أواسطه، والنساء في شماله. ولا شك أن الحج أمرٌ مهمٌّ لكلٍّ هؤلاء، مع أن مناطق الباشتون والمناطق البنجابية في الشمال تتمتع بمعدلات حجٍّ أعلى بكثيرٍ مما هي عليه في المناطق السيرايكية والشيعية في وادي إندوس من الوسط[21](الجدول 5-7A والشكلان 5-7 و 5-8).

وعندما يشجِّع حزبُ الشعب الحجَّ، فإنهُ يظهِر للمسلمين أنه يشاطرهم قِيَمهم الدينيةَ الأساسية. وتودّ بناظير وبطانتُها أيضاً زرعَ روح الحج الخالصة المتَّسمة بالمساواة والشمولية، مع مناشدةٍ خاصة للناخبين الذين يعانون من التمييز بسببٍ من عرقٍ أو طائفةٍ أو جنس. وينظر حزبُ الشعب إلى الحج على أنه صورةٌ تقليدية للرعاية والإحسان والخير العام، إلا أنه في الوقت نفسه يخدم استراتيجيةً متطرِّفةً حَرِيَّةً بأن تفتح الأبواب لحركاتٍ جديدةٍ من المعارضة تقوم على اللغة والطبقة والجنس.

الباشتون الجنوبيون

منذ عدة سنوات وحزبُ الشعب في حالة هجوم في الإقليم الشمالي الغربي الحدودي؛ فبدلاً من تأليف أحلافٍ من أحزابٍ محلِّيةٍ صغيرة، تحدَّى قادةُ حزب الشعب نُخباً قويةً في عقر دارها، وتعاظَمَ نفوذُه شيئاً فشيئاً إلى أن بلغ أقصى غايته في المنطقة الحدودية المتشرذمة سياسياً.

وعندما انتُخبت بناظير بوتو رئيسةً للوزراء في سنة 1988 سيطر زملاؤها على الحكومة المحلّية، وغدا حزبُ الشعب الحزبَ الثاني قوةً في عددٍ من المناطق. وكثيراً ما كان يسبِّب حرجاً للقادة الدينيّين والقبليّين المحليين (مولفي maulvi وخان khans) الذين يعدُّون مقاعدهم في مجلس النواب إرثاً عائلياً لا ينازعهم فيه أحد.

الشكل 7.5 مناطق باكستانية ذات مشاركة حج عالية بين عامي 1974 - 1990

كان ممثِّلُ حزب الشعب في الإقليم الحدودي يدعى آفتاب شيرباو Aftab Sherpao، وهو من أكبر ملاّك الأراضي في منطقة تشارسادا Charsadda الواقعة في سهلٍ غني تكثر فيه زراعة قصب السكر إلى الشمال من بيشاور. وأفراد عائلة شيرباو جيرانٌ ومنافسون ألدَّاء لوالي خان Wali Khan رئيس حزب أوامي الوطني (ANP) وابن عبد الغفار خان الزعيم الأسطوري لقبيلةٍ باشتونية، ومن أوائل المناوئين لإقامة دولةٍ باكستانية. وكان الشقيقُ

الأكبر لآفتاب (واسمه حياة Hayat) نجماً في سماء حزب الشعب، ساعدَ ذو الفقار علي بوتو في الحيلولة دون الاستيلاء على الحكومات المحلِّية في الإقليم الحدودي وإقليم بلوتشستان. شَغَلَ حياة منصب حاكم (معيَّن من بوتو) للإقليم الشمالي الغربي الحدودي، إلا أنه قُتِل سنة 1975 في حادثة تفجيرٍ في جامعة بيشاور ما زال مؤيِّدو حزب الشعب الباكستاني يصفونها بأنها حادثة اغتيالٍ من تدبير والي خان. إلا أن أنصار حزب أوامي ينكرون هذا الادّعاء ويردّون بأن بوتو نفسه أراد إزاحة حياة عن طريقه باعتباره منافساً له[22].

وعندما خَلَفَ آفتاب أخاه أذكت روحُ الضغينة العائلية نارَ الفتنة على خلفية الانقسامات القَبَلية والحزبية التي اجتاحت تشارسادا والقرى المحيطة. وتبلغ درجةُ التسييس في تلك المجتمعات حدّاً استثنائياً؛ فمعظم المنازل والحوانيت ترفع رايات تصرِّح بالانتماءات الحزبية لشاغلي تلك العقارات. ويلاحَظ أن ثمة تمثيلٌ لجميع الأحزاب الرئيسية، وبخاصة حزب الشعب وحزب أوامي.

الشكل 8-5 مناطق باكستانية ذات مشاركة حج منخفضة بين عامي 1974 - 1990

وقد أجّجت بناظير النزاعَ أكثر فأكثر عندما أطلقت حملةً لمصلحة آفتاب قبل انتخابات سنة 1990، بل إنها وافقت على خوض معركةٍ انتخابيةٍ لنيل مقعدٍ لبيشاور في منطقةٍ مجاورةٍ للإقليم الذي تنتمي إليه عائلة شيرباو، في الوقت الذي ترشّحت فيه للانتخابات في لاركانا مسقط رأسها. وبعد بضع سنوات أتيحت الفرصة لشيرباو للردِّ على لفتة بناظير بالمثل عندما خشيت من أن يكون حكمها قد شارف على النهاية. وبعد إقصائها عن الحكم للمرة الثانية وهزيمتها في انتخابات سنة 1997 قدَّمت بناظير استقالتها من قيادة الحزب، معتقدةً بأن الجيش لن يقبل برئيسة وزراء من السند. ولم ينسَ شيرباو في أول مؤتمرٍ وطنيٍّ تالٍ لحزب الشعب إظهار تأييدٍ كبير لبناظير، محرِّضاً المندوبين على التمسُّك بإعلانها رئيسةً للحزب مدى الحياة[23].

وقد اجتمعتُ شخصياً بآفتاب شيرباو عن طريق صديقٍ مشتركٍ هو محامٍ من بيشاور يدعى قازي أنور كان يعمل وكيلاً قانونياً له عندما كان حزبُ الشعب الباكستاني على رأس الحكومة المحلّية. والواقع أنني كنتُ متشكِّكاً عندما أعلمني شيرباو بمدى التزام حزب الشعب بالحج، إلا أنه أكَّد أنه صاحب الفضل في تحقيق رقمٍ قياسيٍّ في حجّ عام 1990 عندما أوفدت باكستان أكثر من 100.000 حاجٍّ إلى مكة. ومع أن الحج في ذلك العام قد حلَّ بُعَيْد تولّي نواز خلفاً لبناظير في إسلام آباد، فإن حكومة حزب الشعب هي التي أنجزت كامل العمل قبل أن تتنحّى، مما دعا شيرباو إلى التفاخر قائلاً: "ذاك هو حجُّنا، وأولئك هم حجّاجُنا."

وفي غمرة عجبي من رضاه وطيب نفسه حتى بعد إقصائه من الحكم سألتُه: "لماذا إذن صوَّتَ الكثيرون من حجَّاجكم لمصلحة منافسيكم؟" فالتفت إلى قازي أنور مستنكراً وقال: "أين؟ أين حصل ذلك؟" ضربتُ له أمثلةً لعدة مناطق – يقع بعضُها في الإقليم الذي ينتمي إليه هو – سارت فيها معدَّلاتُ الحج العاليةُ جنباً إلى جنب مع معدّلات تصويتٍ منخفضةٍ لمصلحة حزب

الشعب. إلا أن ثقة شيرباو مع ذلك لم تتزعزع، ولم يكن على استعدادٍ لقبول نتيجةٍ بدت على نقيض ما كان منتظراً، فتساءل بنبرة احتجاج: "ولماذا لا يصوِّت حجَّاجُنا لنا؟"

وليس من الضرورة أن يذهب قادةُ حزب الشعب في بيشاور بعيداً لإثبات أن مناوئيهم الدينيّين والقوميّين يسيطرون على مناطق الباشتون حيث نشاطُ الحج في غاية الفاعلية. ويلاحَظ في كل سنة أن بعض أعلى معدّلات الحج تبرز في ثلاث مناطق تقع جنوب بيشاور هي: كوهات وبانو وديرا إسماعيل خان. أما الإقليم الحدودي فهو مهد النخبة الدينية السُّنِّيَّة في باكستان، ومن المناطق التي تسجِّل أعلى نسبةٍ من خرّيجي المدارس الشرعية[24].

ويؤلِّف الباشتون الجنوبيون أيضاً صميمَ واحدٍ من أقوى الأحزاب الدينية في باكستان هو حزب "جامعاتي علماء إسلام" Jamiat-i- Ulama Islam (JUI) برئاسة جماعة من المولفي المحافظين من المدرسة الديوبندية Deobandi، وهي أكبر جماعة سُنِّيةٍ في البلاد، نشأت في الهند قبل التقسيم وانتشرت حتى وصلت إلى كابول. ويتمتع المولفي بنفوذٍ سياسيٍّ كبير في جنوب بيشاور بسبب دورهم التقليدي المتعارَف كصنّاع سلام بين القبائل العديدة الدائمة التنازع على الأرض وحقوقِ المرور على امتداد الحدود[25].

إلا أن القادة القَبَليِّين هنا ضعفاء نسبياً مقارنةً بجماعة الخان الشمالية التي تسيطر على أراضٍ أكثر خصباً. ففي بيئةٍ وعرة يمتلك القادةُ العلمانيون فيها قوَّةً ضاربةً مؤثِّرة دون أن يمتلكوا نفوذاً واسعاً، يؤلِّف أعلامُ الدين هناك وسطاء موثوقين فقط لأنهم يفتقرون إلى السلطة اللازمة لإمضاء قراراتهم. ويلاحَظ في هذه المناطق الجبلية القاحلة أن محدودية امتلاك المولفي للأرض والسلاح يوسِّع نفوذهم بدلاً من أن يقيِّده[26].

ولا يتردَّد حزب الشعب في تحدِّي حزب المولفي، فكثيراً ما يكون تنافسُ الحزبين متقارباً في جميع المناطق بين بيشاور وكويتا. وقد حدث في سنة 1990

أن تمكَّن مـرشَّحٌ من حـزب الشـعب من إحـداث إرباكٍ لمولانا فـضل الرحـمن رئيس حزب جامعاتي علماء إسلام في عقر داره. ويُذكر أن جماعة المولفي لم تحقِّق إلا نجـاحاً مـحـدوداً في فـرض حضـورٍ وطنيٍّ لحـزب جـامـعـاتي علمـاء إسلام بسبب الشعبية الواسعة التي يتمتع بها الباشتون، يضاف إلى ذلك أن حـزب الشعب يمارس ضغطاً دائماً على جمـاعـة المولفي ليثبت أن ليس ثمة منطقة آمنة تماماً لأي حزبٍ مهما كان.

يجـدر بالذكـر أن بحث بناظيـر عن تأييـدٍ لهـا لدى مـجـمـوعـاتٍ عـرقيَّـةٍ ودينيـةٍ معيَّنة يتبدّى أكثـر وضوحاً في إقليم البنجـاب. فمع أن مناوئيـها لا ينفكّون ينعتون حزبَ الشعب الباكستاني بأنه حزبٌ "سِنْديّ"، فإن هذا الحزب يسـتـمـد مـعظمَ أصـواته في الواقع من البنجـابيّين، وأنه كـان في مـعظم الانتخـابات ممثَّلاً للبنجـاب أكثر من الرابطة الإسـلامية التي يرأسـها نواز. فـفي حين تتـوزَّع أصـواتُ حـزب الشـعب بصـورةٍ مـتناسـبـة على مـدن وقـرى الإقليم، تحـصل الرابطةُ الإسـلاميـةُ على قدرٍ غـيـر مـتجـانسٍ من دعم المدن الكبرى والشـمال المزدهر. ولئن كانت مظاهرُ الاختلال الاقتصـادي التي يعاني منها البنجاب تتداخل مع الانقسامات من حيث اللغة والطائفة والجنس، فإن ذلك يتيح لحـزب الشعب اسـتغـلالَ نقمـة الأقلّيـات الرئيسـية في الإقليم. وقد أظهـرت بناظير، باعتبـارها قائدةً لسكان الجنوب المحرومين في وجـه الشـمال الغنيّ المتميِّـز، أن البنجـاب مازال منفتحاً على أي حـزبٍ ذي رؤيةٍ وطنيـةٍ صادقـة. واستهدفت "استراتيجيَّتُها الجنوبية" هذه مناطقَ شاسعةً من البنجاب بدأت عبر الحدود مع السند وانتهت في وادي إندوس وصولاً إلى إسلام آباد نفسها.

السيرايكيون Siraikis

حقَّق حزبُ الشـعب نجـاحاً على حسـاب جماعةٍ لغويةٍ وعـرقيةٍ مـا فتئت تدَّعي أنهـا أقدم مـجتمعٍ باكسـتاني – إنهم أولئك الناطقون باللغة السـيرايكية Siraiki في جنوب البنجـاب وغـربهـا. ومع أن السـيـرايكيـين يتـفـاخـرون

بأصولهم القديمة، فإن انتماءهم السياسي مازال متواضعاً وحديث العهد مقارنةً بالجماعات العِرقية الأخرى. يُذكر أن السيرايكية هي اللغة الرابعة الشائعة في باكستان بعد اللغة البنجابية (48%) Punjabi والباشتو Pashto (13%) والسندية (12%) Sindhi، وهي اللغة الأم لنحو 10 بالمئة من مجموع سكان باكستان ولنحو 15 بالمئة من سكان إقليم البنجاب. ويُذكر أيضاً أن عدد الناطقين بالسيرايكية يزيد على عدد المهاجرين الناطقين بالأوردية Urdu (ويؤلِّفون نسبة 8٪) الذين يناضلون للاعتراف بهم باعتبارهم المجتمع "الأصلي" الخامس في باكستان، وهم يؤلِّفون أكثر من ضعفي الجماعة المتمرِّدة المسمَّاة بالوتشي – برافي (التي لا تتجاوز نسبتُها 4٪) التي تحظى باهتمامٍ كبير بسبب ثوراتها المتكرِّرة على الحكومة المركزية.

لم يتبلور وجود السيرايكيّين في كتلةٍ انتخابيةٍ إلا في غضون العقد الفائت. وكان الدافع الأول لصحوتهم حركة لغوية منافِسة من الناطقين بالبنجابية في إقليم لاهور المجاور[27]. وإذ أصبح البنجاب ظاهرَ السيادة، بدأ المثقَّفون من البنجابيّين بتحويل انتماءاتهم من الأوردية وارتباطها بالإسلام الهندي النزعة نحو لغتهم الدارجة. وقد ظهرت اللغةُ البنجابية جنباً إلى جنب مع الأوردية في المدارس والجامعات وفي البث الإذاعي وقنوات التلفزة، وفي الصناعة السينمائية المتنامية في لاهور. وهكذا كان انبعاثُ البنجابية بمنزلة توكيدٍ لوجود المجموعة العِرقية السائدة في باكستان، وتعبيرٍ عن تراجع اللغات الأدبية باتجاه اللغات "المحلية" الدارجة في باكستان وعموم منطقة جنوب آسيا[28].

والسيرايكيون أنصارٌ متحمِّسون لفكرة الاندماج القومي برغم كل ما يقولونه عن تميُّزهم الثقافي. إنهم يربطون هويَّتهم باللغة أكثر مما يربطونها بالعرق، ولغتُهم ضاربةُ الجذور في حضارات وادي إندوس القديمة في قلب باكستان. وكثيراً ما يصنِّفون السيرايكية بأنها لغةٌ ظهرت قبل الآرية وانتشرت

في موهينجودارو وهارابا وتاكسيلا – وهي دولُ مدنٍ تُعرف بمواقعها الأثرية الهامة التي تُعدُّ بحق مفخرةً لكل مواطنٍ باكستاني. واستناداً إلى ذلك فإن الباكستانيين الآخرين كافة هم مهاجرون، سواء عليهم أقَدِمَ أجدادُهم قبل التقسيم أم بعده.

ويحرص السيرايكيون بصفةٍ خاصة على إظهار ثقافتهم باعتبارها جسراً يصل بين القوَّتين العظيمتين في وادي إندوس، المتمثِّلتين في البنجابيّين والسنديّين، واللتين تنظر إحداهما إلى الأخرى نظرتها إلى عدوٍّ لدود. هذه الصورة للثقافة السيرايكية هي بمنزلة مفصلٍ حيويٍّ يجمع الشمالَ والجنوب المتنافرين، وتستغرق الحياةَ الدينية أيضاً. وقد وُصفت السيرايكية بأنها لغةٌ إقليميةٌ مشتركةٌ توحِّد طُرُقَ التجارة ومراكزَ الحج التي تجتاز وسط وادي إندوس، علماً بأن أهم ما كُتب بها من نصوصٍ أدبيةٍ مجموعاتٌ شعريةٌ صوفية، وأن إرثَها المتناقَل مشافهةً مجموعةٌ نفيسةٌ من الأغنيات الشعبية[29]. وكلا اللونين ملائمٌ لإشاعة الحبِّ الأخويّ الصادق بين مختلف الطوائف والأعراق. ومن المفيد القول إن أول مَنْ رعى المنتديات السيرايكية هم سدنةُ المزاراتِ القائمون على أضرحة الشخصيات الصوفية المعتبَرة التي ينجذب إليها ملايين الزوّار من شتى أنحاء باكستان، ولاسيما في ملتان – "مدينة الأولياء" وأكبر مركزٍ مدينيّ في جنوب البنجاب[30].

وإذ غدت القوى التي يُفترَض أن توحِّد المجتمعَ الباكستاني – مثل اللغة الأوردية والجيش والإدارة المدنية والجامعات – حوزاتٍ لمجموعاتٍ عرقية معيَّنة، فإن العنصر الإسلامي الصوفي شهدَ انبعاثةً مذهلةً في أوساط المفكِّرين الذين كانوا من قبلُ يعدُّونه ضرباً من الخرافة. وكثيراً ما يؤكِّد القادةُ السيرايكيون اليوم ارتباطهم التاريخي بالصوفية التي راقت الباكستانيين التائقين إلى أن يكون الإسلامُ قوةً تأسو الجراح بدلاً من أن يكون سبباً آخر للفُرقة والانقسام.

وما برحت قبورُ ملتان مزاراتٍ متعدِّدة الثقافات يؤمُّها الناسُ من مختلف الطوائف بقصد الاستشفاء والتماس البركات. وقد أضفت الدولةُ منذ عهد أيوب خان هالةً جديدةً من الاحترام على هذه المقامات عن طريق التخفيف من إجراءاتها الشعائرية وتنظيم تمويلها[31]. وتمسَّكَ القادةُ السيرايكيون بهذه المبادئ الصوفية كأسلوبٍ لتثبيت صورتهم لدى الطبقات الباكستانية المثقَّفة.

على أن زوَّار ملتان الوافدين إليها من لاهور ربما يستشعرون أنهم مرتحلون إلى ثقافةٍ أخرى وعصرٍ آخر، ولا غرو، فلطالما اشتكت مدينة ملتان من أن حكومةَ البنجاب المحلّية قد خدعتها مرتين: أولاهما بإجبار الأفراد المتميِّزين على الهجرة إلى الشمال، وثانيتهما إفراد أرقى الأعمال والوظائف في المدينة للمهاجرين الناطقين بالبنجابية. ولربما كان مرشَّحو حزب الشعب هم المستفيدين منطقياً من تلك النزعة المناهضة للبنجابيين لأنها وثيقة الارتباط بالاحتجاج الثقافي والاقتصادي الذي يجتاح إقليمَ السند، موطن بناظير بوتو.

يُعدّ إقليم بهاوالبور منافساً قديماً لملتان، ومركزاً لنشاطٍ سيرايكيٍّ مبكر. كان فيما مضى ولايةً أميريةً سعت بعد التقسيم إلى نيل مكانةٍ خاصة، ومن ثم فمن المحتمل أن يكون هو العاصمة غير الرسمية لجنوب البنجاب. وقد قام حاكم بهاوالبور فعلاً برعاية بواكير المشروعات الأدبية التي أقامتها المنتدياتُ السيرايكية، إلا أن الأمر لم يبلغ درجةَ المطالبة بتدريس السيرايكية في المدارس العامة أو العمل على صعيد التنظيم السياسي.

وتتنافس ملتان وبهاوالبور أيضاً باعتبارهما مركزَيْن للحج، فكلتاهما تشتركان بمزيَّةٍ نادرةٍ هي أنهما مقصدان مفضَّلان للحجاج من داخل باكستان، إضافةً إلى أنهما توفدان حملات حجٍّ كبيرةً إلى مكة المكرمة. ومن الملاحظ أن المزارات الصوفية هنا تشجع صنفَي الحج كليهما دون إيثار أحدهما على الآخر، فيقيم الصوفيون عادةً طقوساً خاصةً في أثناء موسم

الحج، ويباشر الكثيرون صيامَ عشرة أيام كمشاركةٍ غير مباشرة في شعائر الحج بمكة المكرمة[32].

حاول ذو الفقار علي بوتو تعزيزَ الروابط بين الحج ورحلات الزيارة المحلّية، وذلك بتضييق شُقَّة الخلافات بين الصوفيّين والعلماء. ولتحقيق ذلك حدَّدَ صلاحيات القائمين على المزارات والمستفيدين منها، إلا أنه أراد من الشعب أن يعاين مدى عناية الدولة بالمزارات نفسها؛ فطلبَ عرضَ نبذةٍ تاريخيةٍ على أهم المقامات والمزارات أغفلت ذكرَ الصوفيّين الذين مازالوا على قيد الحياة، في حين استفاضت في بيان سِيَر الأولياء الأوائل والتنويه بهم كعلماء نابهين تعلّموا في مكة.

وتابعت بناظير في خُطا أبيها على الصعيدين الديني والاقتصادي، إلا أن نجاحها يعود إلى الاقتصاد أكثر منه إلى الدين. وفيما يتصل بالآثار السياسية للحج ينهج الإقليمُ السيرايكي أسلوبَ إقليم البنجاب نفسَه عموماً، حيث الحجُّ أوثق علاقةً بالرابطة الإسلامية منه بحزب الشعب. وقد كانت مكاسبُ حزب الشعب في المناطق الريفية المتأخرة (من مثل: ديرا غازي خان وراهيمیار خان) أكبر بكثير منها في المدن الكبرى حيث ينشط الحجُّ بدرجةٍ أعلى بكثير. وهكذا يتمثَّل أغنى مصدرٍ للحجاج السيرايكيّين - وهو بهاوالبور - في أقوى نصيرٍ للرابطة الإسلامية في المنطقة.

ومع أن الثقافة السيرايكية ارتبطت دوماً برحلات الحج الإقليمية والدولية منذ قرونٍ عديدة، فليس ثمة ما يدل على أن للسيرايكيين استعداداً لأداء الحج يفوق سائر الباكستانيين، إذ تشير الإحصاءات إلى أن معدّلات حجِّهم تقارب المعدّل القومي، بما يتناسب وموقعهم المتوسط بين الشمال المزدهر والمناطق الريفية الفقيرة من السند وبلوتشستان. ويمكن تفسير التفاوت في فعالية الحج بين السيرايكيين بعوامل التنمية الاقتصادية والرعاية السياسية دون الرجوع إلى المعتقدات التقليدية المحلّية المتَّصلة

بشخصيةٍ صوفيةٍ متميِّزة. ومع ذلك يجد مرشَّحو حزب الشعب أن سياسات الحج المنفتحة تكسِبهم تعاطُفَ الناخبين السيرايكيين الذين يستنكرون من الساسة البنجابيِّين تجاهلَهم وإسقاطهم من الحساب.

الشيعة

إلى الشمال من المنطقة السيرايكية باتت منطقةُ حزب الشعب منخرطةً في نزاعاتٍ عنيفةٍ بين الشيعة والسنَّة. ويؤلِّف الشيعة نحو 20 بالمئة من إجمالي عدد سكان باكستان، وهم يتوزَّعون في كلِّ جزءٍ من الدولة، إلا أنهم أكثر كثافةً في ثلاث مناطق. فالشيعة الإسماعيليون يتكتَّلون في مجموعاتٍ صغيرةٍ تشمل أتباع آغا خان، وأكثر تجمُّعهم في المناطق التجارية من كراتشي وفي المناطق النائية القريبة من الحدود مع الصين. على أن أكبر أقليَّةٍ إسلاميةٍ في باكستان هي من الشيعة الجعفريين، وهم يقيمون غالباً في أرياف أواسط البنجاب بين إسلام آباد وملتان، وينتسبون إلى المدرسة الشيعية السائدة في إيران والعراق.

تفاقمت المواجهاتُ بين الشيعة والسنَّة في شتى أنحاء باكستان عقب الثورة الإسلامية في إيران[33]. وأصبحت مقاطعة جانغ Jhang البنجابية ميداناً للقتال، وهدفاً رئيسياً لحملات حزب الشعب، ومهداً لجيلٍ متطرِّفٍ من السنَّة والشيعة الذين وسَّعوا دائرةَ أنشطتهم ومؤسساتهم في طول البلاد وعرضها. ومن أمثلة ذلك ما يُعرف بجيش أصحاب الرسول Army of the Prophet's Companions القائم على مجموعاتٍ شبه عسكريةٍ من الوطنيين السنَّة المتعصِّبين كانوا يشجبون مسيراتِ الحِداد الشيعية التقليدية ويطلقون النار عليها باعتبارها إهانةً للخلفاء الأوائل[34]. وقد وجَّه كثيرون من سكان جانغ الاتِّهامَ إلى حكومة البنجاب المحلّية بتشجيع المتطرّفين السنَّة على إحباط تحوُّلٍ شيعيٍّ نحو حزب الشعب.

ثم أُلهبت مشاعرُ الشيعة بظهور صنفٍ جديدٍ من القادة الدينيّين الذين نبذوا المنهجَ السلبيَّ لملاّك الأراضي وسَدَنَة المزارات الدينية في السيطرة على السياسة المحلّية، لاسيما إذا علمنا أن مقاطعة جانغ وجارتها الشمالية ساركودا Sargodha وحدهما تستأثران بتخريج نسبة 20 بالمئة من طلاب المدارس الدينية الشيعية في باكستان[35]، ممَّن كانوا في طليعة الشبّان الداعين إلى التسلُّح وإحداث حركةٍ سياسية.

وما إن اغتيل مؤسِّسُ جيش أصحاب الرسول في سنة 1990 حتى غرقت البلاد في حمأة الانتقام وعمليات الإحراق المتعمَّد للممتلكات. وتطوَّرت الاعتداءاتُ على رموز الآلام الشيعية التقليدية لتتحوَّل إلى حربٍ مفتوحةٍ بالأسلحة الثقيلة شرَّدت آلافَ السكان من بيوتهم.

أما الانجذابُ الشيعي إلى حزب الشعب الباكستاني فناشئ عن مصلحةٍ سياسيةٍ لا عن التزامٍ ديني. فعائلة بوتو هي من أصلٍ شيعي ("ذو الفقار" هو اسم سيف عليّ كرّم الله وجهه)، إلا أنهم يحاولون دوماً الإغضاء على هذا الأمر والإبقاء على انتماءاتهم الطائفية غامضةً وغير معلنة. وينظر الكثيرُ من الشيعة إلى بناظير نظرتهم إلى قائد "علماني"، ولا يؤيِّدونها إلا أنها تبدو أقلَّ خطراً من منافسيها لا أكثر ولا أقل. ومع أن والدها كان مؤيِّداً لحوادث الاضطهاد الممارس على الطائفة الأحمدية، فإن الشيعة على وجه العموم يرون في بناظير شخصيةً سياسيةً لا يرجَّح أن تميل إلى الخصوصية السنِّيَّة. وواقع الحال أن الشيعة لم يكونوا مستعدين لعقد حلفٍ مع بناظير إلا بسبب الانتقاد العنيف الذي وجَّهه المتطرِّفون السنَّة إلى حزب الشعب باعتباره "محارباً للإسلام".

ولم يلبث أن امتدَّ الاهتياج الشيعي شمالاً من جانغ وساركودا إلى جيلوم الواقعة في ظاهر العاصمة. هنا تفاقَمَ النزاعُ الطائفي مع تزايُدِ انتشار الزراعة الآلية وتطوُّر المصانع الحديثة، فاضطرَّ صغارُ المزارعين والعمّال إلى

الانتقال إلى المدينة حيث وجدوا أربابَ الأعمال السنَّة وقد احتكروا أفضل الوظائف والأعمال لخاصَّتهم ولمن يلوذ بهم. يضاف إلى ذلك أن المواطنين العائدين من الخليج العربي بمبالغ من المال قد حملوا مطامح من شأنها أن تزعزع التسلسلَ التراتبيَّ التقليدي في كلتا الطائفتين.

وفي المدن خرجت مسيراتُ الحِداد التقليديةُ (المعبِّرة عن آلام الشيعة) وهي تشجب مساعي السنَّة لإملاء قوانين الشريعة الإسلامية على باكستان، وتطالب السعوديةَ بالتخلّي عن إدارة شؤون الحج والمدن المقدَّسة. وتمكَّن قادةُ الشيعة -عن طريق تحويل الاحتفالات الدينية إلى احتجاجاتٍ شعبية - من تمهيد السبيل لانطلاق مواجهات عنفٍ متوقَّعةٍ مع رجال الأمن والمتطرِّفين من السنَّة، فانتشرت الاضطرابات في جميع أنحاء البلاد.

وفي سنة 1983 جلبَ الشيعةُ من سكان مقاطعة تشاكوال Chakwal على أنفسهم الهزء عندما ادَّعى "سيِّد" (أحد أفراد أسرةٍ "نبيلة" تدَّعي أنها سليلة العترة النبوية) من أبناء البلدة أن ابنته تتلقّى الوحيَ من الإمام المحجوب[36]. وترتَّب على تلك الرؤى أن سافرَ نحو أربعين شخصاً إلى منطقة هوكس بي في كراتشي، حيث ربطوا أنفسهم إلى قطعٍ من جذوع الأشجار قذفوها في بحر العرب بانتظار معجزةٍ تنقلهم إلى العراق لزيارة ضريح الإمام الحسين في كربلاء. فقضى نصفُهم غرقاً؛ أما من بقي منهم على قيد الحياة فقد احتُفي بهم على أنهم الناجون من الشهداء، الذين وضعوا أمام العالم ما يعانيه الشيعةُ في باكستان من أحزانٍ وكروب.

بعد حادثة هوكس بي أمست تشاكوال مثابةً لكل جماعةٍ طائفية تنشد الشهرةَ السياسية. وفي ذلك الوقت كانت أكبرُ المؤسسات الشيعية الباكستانية - وهي حركة تطبيق الشرائع الجعفرية - قد انقسمت إلى فرقتين سارعتا إلى تشاكوال لتناظرِ إحداهما الأخرى، وسعياً إلى الحصول على الدعم لحزبٍ شيعيٍّ مستقلّ. وانقلبت المسيراتُ والمواكبُ الشيعية في تشاكوال إلى

أعمال شغبٍ شبَّهها الصحفيون والساسة باضطرابات لاهور وملتان وكراتشي[37].

اشتدت وطأةُ أعمال العنف في الوقت الذي قامت فيه جماعاتٌ سنيَّةٌ معروفة بتصعيد فعالياتها في المنطقة. وغدت تشاكوال مقصداً يختلف إليه أعضاءُ المؤسسة الشبابية "جماعاتي إسلامي" وجيش أصحاب الرسول. بل تعرَّض الشيعةُ هناك لاعتداءاتٍ من مؤسسة ضياء الحق Zia Foundation التي أُسِّست لمتابعة أعمال الرئيس الراحل الدينية بدعمٍ من ولده إجاز الحق الذي أصبح مندوباً للرابطة الإسلامية عن مدينة راولبندي المجاورة.

ومما يُذكر أن معظم المواجهات الطائفية التي شهدتها تشاكوال لم تكن من تنظيم جهاتٍ خارجية، بل صادرةً عن رجال أعمالٍ محلّيّين. من هؤلاء قائدٌ سنّيٌّ بارز كان يعيد النظر فيما يزمع تنفيذه من أعمال عندما قمتُ شخصياً بزيارة مدينته، وهو مهندس نسيج كان حديثَ العهد في خلافة والده كرئيسٍ لجماعةٍ صوفيةٍ كبيرة.

حدَّثني أنه كان توَّاقاً إلى الانتقال إلى الولايات المتحدة لتحصيل دراساتٍ عليا، إلا أنه كان متخوِّفاً من مغادرة البلاد وهي في غمرة أوضاعٍ طائفيةٍ مترديِّة. واعترف بأن منظمته الأخوية تميل إلى تشغيل عمَّالٍ من السنَّة فقط، إلا أنه استدرك أن هذه الممارسات من شأنها أن تزرع الشقاق وتتسبَّب في سفك الدماء، وأعرب عن رغبته في إيجاد أسلوبٍ أكثر إنصافاً. كان يدرك، بحكم كونه مهندساً، أنه بحاجةٍ إلى تأهيل نفسه لإدارة فعاليةٍ صناعيةٍ حديثة، وأن هذا التأهيل قد يلجئه إلى السفر إلى الخارج لبضع سنواتٍ على الأقل. أما من حيث كونه قائداً روحياً فإن من المهم عنده بالدرجة نفسها أن يبقى في وطنه قريباً من مركز الحدث متابعاً لتداعياته.

إن الجمع بين الثروة الحديثة والنزاعات القديمة قد أسهم في نقل تشاكوال لتكون أنشط مركزٍ للحج في سائر إقليم البنجاب بعد إسلام آباد؛

فاجتمعَ السنَّةُ (الأثرياء) والشيعة (المستاؤون) لدفع الحج فيها - كما في جانغ المجاورة - إلى آفاقٍ جديدةٍ عاماً بعد عام. ومع ذلك فإن تشاكوال تمثِّل في كثيرٍ من الوجوه الصورةَ المقابلةَ لجانغ: فهي بلدةٌ زراعيةٌ فقيرة وشيعية في المقام الأول، ومعدَّلات الحج فيها متصاعدة، إلا أنها لم تبلغ بعدُ نصف المعدَّل البنجابي. بالمقابل تجد أن تشاكوال بلدةٌ صناعيةٌ غنية وسنِّية، تزيد معدَّلاتُ الحج فيها على مثلَيْ معدَّلاته في سائر الإقليم.

من ناحيةٍ أخرى يلاحَظ أن جانغ وتشاكوال تتباعدان سياسياً: ففي حين أحرز حزبُ الشعب تقدُّماً ملحوظاً في جانغ، حقَّقت الرابطةُ الإسلامية مثل ذلك في تشاكوال، التي تدين برخائها الحالي لضياء ومَنْ خَلَفه. وفي غضون ولاية نواز شريف كحاكمٍ إقليمي أصبحت تشاكوال مقاطعةً مستقلة تحظى بمقعدين في البرلمان، أحدهما غير ثابت يشغله نوابٌ من حزب الشعب والرابطة الإسلامية على السواء، والآخر عاطل مخصَّص لواحدٍ من أقدم أعضاء حكومة ضياء، وهو جنرال متقاعد يفوز في كل انتخاب بدعمٍ من الرابطة الإسلامية[38].

ولا شك أن جانغ وتشاكوال تجسِّدان التحرُّكَ السريع والتحرُّكَ المعاكس للشيعة والسنّة في وسط البنجاب: فتزايُد معدَّلات الحج في كلا المنطقتين إشارةٌ إلى تنامي الثراء، وأمارةٌ على تعمُّق مشاعر المواجهة بينهما. وتحرص كلُّ طائفة على تشجيع الحج بقصد لمِّ شعث جماعة المؤمنين من جهة، وكمظهرٍ لعرض العضلات من جهةٍ أخرى. ويتنافس حزبُ الشعب والرابطةُ الإسلامية في تعهُّد رحلات الحج التي تسهم فعلاً في قيام ائتلافاتٍ جديدة، إلا أن هذه الائتلافات تتعامل كجيوش لا ككتلٍ انتخابية.

النساء البنجابيات

يبلغ التنافسُ بين حزب الشعب والرابطة الإسلامية ذروته في شمال شرق البنجاب، وبخاصةٍ في المدن السريعة النماء الواقعة بين إسلام آباد

ولاهور. وتُعدُّ هذه المنطقة أقربَ مناطق باكستان وأكثرها استعداداً لتأييد وجود منظومةٍ من حزبين يكون فيها المتنافسون الرئيسيون هم اللاعبين المسيطرين على الصعيد الوطني.

ولما كانت هوامشُ الفوز طفيفةً لكلا الحزبين، فإن تلفيقَ أبسط الخِدَع الانتخابيةِ كفيلٌ بأن يولِّد درجاتٍ من التفاوت لا يستهان بها في ميزان قوى البرلمان ومجلس النواب الإقليمي. كذلك تولِّد النزاعاتُ بين أنصار الأحزاب عنفاً، سواء أكانت الانتخاباتُ عامةً أم محلّية. وما أكثر ما تحمله الصحافةُ المحلّية طوال أيِّ موسمٍ انتخابي من أخبارٍ عن وقوع اغتيالاتٍ سياسية، وحوادث تدليس في التصويت، وإعادة إحصاءٍ للأصوات بأمرٍ قضائي.

في هذه المنطقة الحيوية تبرز أربعُ مقاطعات كمراكز نشاطٍ دائمٍ للحج هي: جيلوم وكوجرات وكوجرانوالا وسيالكوت، وجميعها ذات اقتصادٍ مزدهر وفعالية حجٍّ استثنائية حتى بالمعايير البنجابية. أضف إلى ذلك أنها المواقع الوحيدة التي سجلت في باكستان أغلبيةَ حجيجٍ من الإناث. هذا الركن من إقليم البنجاب يُشتَهر أيضاً بتحقيق مستوياتٍ عاليةٍ في إتقان القراءة والكتابة بين إناثه – في اللغة العربية واللغتين الأوردية والإنكليزية.

قد تبدو هذه المجموعة البارزة مثاليةً في مقاييس الرابطة الإسلامية. فالمدن الصناعية والطبقات الوسطى الثريّة والهيمنة العِرقية البنجابية والعائلات السنِّيَّة المحافظة التي تستطيع إرسال نسائها إلى المدارس الشرعية الخاصة وإلى مكة المكرمة – كلها مقوّمات نموذجية للنجاح الانتخابي لنواز وأتباعه. والحقيقة أن الحزبين الرئيسيَّين متعادلان بصورةٍ لافتة في هذه المقاطعات، بحيث يتقدَّم حزبُ الشعب قليلاً في كوجرات وجيلوم، في حين تكون الأفضلية للرابطة الإسلامية في كوجرانوالا وسيالكوت. على أن هوامش الفوز لا تكاد تُذكر على وجه العموم.

في هذا الجزء من البنجاب استطاعت بناظير تحقيق نجاحٍ كبيرٍ في التغلُّب على القوالب النمطية التي استعملها منافسوها لغير مصلحتها في

عموم الإقليم، علماً بأن شطراً كبيراً من شعبيَّتها هنا نابعٌ من العنصر الجاذب الذي يحبِّبها إلى النساء البنجابيات اللواتي يرين فيها ما يرينه في أنفسهن – فهي متعلِّمة ومتفتّحة العقل وفيّاضة بالثقة والاندفاع لتحقيق إنجازات وخلق فرصٍ للعمل والقضاء على التحيُّز الجنسي.

وفي سياق الهزيمة الانتخابية سنة 1997 فَقَدَ حزبُ الشعب جميع مقاعده في البنجاب، البالغ عددها 117 مقعداً. وكان من تبعات المهانة التي لحقت ببناظير بسبب فضائح زوجها، وخلافاتها السياسية مع والدتها، والاتهامات الموجَّهة إليها بالتواطؤ على اغتيال أخيها، أن اضطرَّت إلى تقديم استقالتها من قيادة الحزب، وادَّعت أن ذات "المؤسسة البنجابية" التي قتلت أباها عازمةٌ على القضاء عليها هي أيضاً، وأن لا سبيل إلى استمرار حزب الشعب إلا بخليفةٍ لها من البنجاب[39].

وإذا كانت بناظير تقصد ما تقول، فقد استهانت إلى حدٍّ بعيد بتقدير حقيقة ما تحظى به من قبولٍ لدى قطاعٍ عريضٍ من جمهور الناخبين البنجابيين. ولا ريب أن قادة الحزب الذين شجَّعوها على المثابرة أدركوا تماماً أنها تمثِّل تحدِّياً كبيراً للساسة لا يمكن أن يجاريها فيه والدها ولا غيره. ومع أن خصومها كثيراً ما يصوِّرونها على أنها "إقطاعية" فاسدة من السند، فإن للإناث من أقارب أولئك الخصوم وجيرانهم رأياً آخر، إذ يرين فيها المرأةَ المسلمة العصرية التي يتماشى نضالها مع مطامحهن.

وبرغم نشأتها في أسرةٍ موسرة وتبوُّئها رئاسةَ حكومتين، ما انفكَّ الباكستانيون ينظرون إليها كشخصيةٍ دخيلةٍ بائسة، تنبري لمشكلاتٍ عويصةٍ تتجاوز حدودَ قدرتها، وتتصدّى للقضايا الراهنة بمزيجٍ من الشجاعة وانعدام الحماية يثير عَجَبَ العدوّ والصديق على حدٍّ سواء.

حظيت بناظير قبل إدانتها بتجاوزاتٍ مالية برصيدٍ كبيرٍ من الشعبية اكتسبتها على إثر إعدام أبيها، وبالنظر إلى روح العداوة التي يكنّها الكثير من

ضباط الجيش والإدارة المدنية لعائلة بوتو بسبب انتقادها الدائم لهم. فنالت مزيداً من التعاطف باعتبارها رمزاً للاحتجاج والمعارضة، وامرأةً ذات إمكاناتٍ خلاّقة يعترض سبيلها رجالٌ ذوو نفوذ.

ولم يكن نواز أفضل حالاً أو أقوى موقفاً منها حتى عندما تسنَّم رئاسة الحكومة؛ فقد كان واقعُ الاقتصاد والسياسة في باكستان في حالةٍ من الجمود لم يستطع أيُّ رئيسٍ للوزراء التغلُّبَ عليها. وأصرَّت الجهاتُ الدوليةُ المانحة على إجراء إصلاحاتٍ في السوق الحرَّة شرطاً لتقديم مساعداتها، إلا أنها لم تجد ثمة مَنْ يدعمها في ذلك؛ فالنفقات على شؤون الدفاع محظورٌ مساسها، ومُلاّك الأراضي معترضون على فرض ضرائب زراعية، والطبقات العاملة الفقيرة مستعدَّةٌ لتعطيل أيِّ حكومةٍ قد تمثِّل تهديداً للأقوات الرخيصة والتشغيل في القطاع العام.

وبرغم جوانب الإحباط المشتركة بينهما، فقد كانت بناظير ونواز على وجه العموم يجسِّدان قوَّتين اجتماعيتين متناقضتين: فنواز هو أداة المؤسسة المتنفِّذة، وبناظير هي صوت من لا صوت له. وإن مثل هذه الصور النمطية من شأنها أن تخلق شروخاً، لأن حزب الشعب في كثير من أجزاء البنجاب يدرك الجوانب التي هي حكر للرابطة الإسلامية.

يمثِّل شمالُ البنجاب مركزَ الحركة النسائية المتنامية في باكستان، ومنطلقَ مجموعات حقوق الإنسان التي تطالب الحكوماتِ المحليةَ هناك بمحاربة ما تفشَّى من عادة الإساءة إلى النساء وقتلهن[40]. ويُذكر أن من يقوم على هذه المجموعات نساءٌ مسلماتٌ متعلِّمات هنَّ - شأن بناظير - بنات النخبة الاجتماعية ممَّن وقفنَ أنفسهن للدفاع عن مصالح النساء اللائي لا يسعهنَّ الدفاع عن أنفسهن.

ولا بد من الإشارة إلى مسألةٍ هامة كانت تدفع النساءَ البنجابيات إلى الوقوف في وجه المسؤولين في الرابطة الإسلامية عن الحكومة المحلّية: تلك

هي مسألة ارتفاع نسبة ما تسمى "جرائم القتل المطبخية" التي تقضي فيها زوجاتٌ شاباتٌ احتراقاً بانفجار مواقد الغاز في وجوههن، وبقدرة قادرٍ لا يصيب الأذى أحداً غيرهن[41]. ومن الأمثلة على ذلك ما يُذكر عن زوجةٍ شابةٍ تنجب وليدها الأول. فإذا كان المولود أنثى، ذهبَ أهلُ الزوج يطالبون بصداقٍ إضافيٍّ من أهل الزوجة. ويكفي أن يبدي هؤلاء اعتراضاً أو تلكُّؤاً في تنفيذ المطلوب حتى تُساط الزوجة أو تُحرق! فإذا بقيت بعد أن سيمت الخسفَ على قيد الحياة واجهت رعباً من نوعٍ آخر يتمثَّل في ترهيبها بإيذاء وليدها إلى درجةٍ تجعلها تمتنع عن الاستنصار بالسلطات للانتصاف لنفسها.

وقد خرجت مجموعاتٌ من النساء البنجابيات إلى الشوارع في مظاهرات احتجاج، ودخلن في معارك قضائية لإجبار الحكومة على التدخُّل. إلا أن أقصى ما حقَّقْنَه كان اتّخاذ إجراءٍ واهٍ يسمح للأطباء ورجال الشرطة بتدوين تصريحاتٍ من الضحايا، وهنَّ يُحْتَضَرْن، عن هويات أقاربهن الذين ساموهنَّ سوءَ العذاب.

كذلك احتجَّت بعضُ المنظمات من أنصار الحركة النسوية على انتشار نوعٍ جديد من جرائم الجنس، وهو الاغتصاب بدافعٍ سياسي. ففي أجزاء من أرياف باكستان يُعدّ الإذلال الجنسي للنساء سلاحاً تلجأ إليه العشائر والعائلات في الثأر لشرفها. وقد وقعت في العقد الماضي اعتداءاتٌ من هذا القبيل استهدفت زوجاتٍ ساسةٍ وبناتهم، ذاع منها حادثتا اعتداء على أعضاءٍ من حزب الشعب[42]. فإذا كان المقصود من "حوادث الاغتصاب السياسي" هذه ترهيب أنصار حزب الشعب المحتملين، فلا شك أنها أخطأت مقصدها، لأن جرائمَ الجنس الموجَّهة إلى نساء الحزب الوحيد الذي ترأسه امرأة قد أحدثَت غضباً واستنكاراً أكثر مما ولَّدت ذعراً. ومن ثم فإن الإناث الناخبات، اللواتي أغضبهنَّ الموقفُ اللامبالي الذي أبدته الرابطةُ الإسلامية إزاء جرائم القتل بانفجار المواقد، يجدن في حوادث الاغتصاب السياسي ما يجعل من بناظير أكثر الاختيارات ملاءمة.

ومع أن حزبَ الرابطة الإسلامية يُعدّ الناطقَ بلسان الطبقة الوسطى في مدن البنجاب، فإن حزب بناظير يتمتع بدعمٍ معادِلٍ في المناطق التي يبلغ فيها نصفُ عدد الحجاج من الإناث. ويَظهر نجاحُ كلا الحزبين الرئيسيَّين حيثما حقَّقت النساءُ البنجابيات معدَّلاتٍ عاليةً في معرفة القراءة والكتابة باللغة العربية، فالحج والقدرة على قراءة القرآن الكريم يساعدان حزبَ الشعب في أوساط نساء المدن، ويساعدان حزبَ الرابطةِ الإسلامية في أوساط رجال الأرياف.

الآثار الاجتماعية للحج السياسي

يُعَدُّ الحجُّ عاملاً مساعداً لساسة باكستان من نواحٍ عديدة. ولكن كيف تؤثِّر إدارةُ الحج في الدولة؟ ثمة إسهامان محدودان تقابلهما كلفةٌ باهظة.

فقد أسهمت المنافسةُ الحزبيةُ في مسألة الحج الباكستاني في توسيع حدود المناقشات الدينية بدلاً من تركها في أيدي المتطرفين الذين يرفضون أيَّ حلٍّ وسط. ولم يكن الحجُّ الباكستاني يوماً حكراً على اليمين أو هدفاً للفئة العلمانية المتعالية، ولم يتخلَّ المجدِّدون الباكستانيون عن الإسلام إلى أئمة المسلمين، ولذلك مازالوا يتكلَّمون من موقع سلطة في القضايا الدينية حيث يمكن أن يجد ذوو العقول المتفتّحة مجالاً لوجود رأيٍ ورأيٍ آخر.

أما الإسهام الآخر فيتمثَّل في أن الحجَّ الباكستاني لم يصبح مورداً مالياً تديره الدولة كما هو الحال في إندونيسيا. وقد حالَ الساسةُ الباكستانيون دون أن يمارس الجيشُ والبيروقراطيةُ ضغطاً أو تخفيضاً على الحج مقابل مكسبٍ مادّيٍّ ونفوذٍ سلطوي، بل اضطلعت الحكومةُ بمعظم شؤون الحج، إلا أن جهةً لم تتولَّ مقاليدَ الحكم أو شؤون الحج مدةً طويلةً على كل حال. ولعلَّ باكستان في الحقبة التي تلت ضياء الحق تمثِّل استشرافاً لمستقبل الحج الإندونيسي بعد سوهارتو.

وقد أحدثت المؤسساتُ الشعبيةُ في باكستان وإندونيسيا كلتيهما شبكاتٍ للحجِّ بهدف الحصول على أصواتٍ انتخابيةٍ مقابل تقديم الرعاية. وعندما

تولَّت بناظير الحكمَ أول مرة، كان من أولى الخطوات التي اتَّخذتها المطالبة ببسط سيطرتها على وكالة الحج التي أسَّسها والدها. وكانت للساسة الإسلاميين في إندونيسيا مطالب مشابهة حتى قبل وفاة سوهارتو بزمنٍ طويل. فكانت حملتُهم الهادفةُ إلى تجريد شأن الحج من الصفة القومية شبيهةً بالموقف الاحترازي لحزب الشعب الباكستاني في شأنه.

ومن المؤسف أن هذه المكاسب قابَلَها تفاقُمٌ لمظاهر التوتُّر العِرقي والطائفي لا تتوافق مع روح الحج وغاياته، بل ربما ولا مع استمرار وجود باكستان بحدِّ ذاتها. إن الحجَّ الباكستاني مازال مرتبطاً ارتباطاً وشيجاً بالنزعة الطائفية بشكلٍ يدفع التوتُّر الاجتماعي أبعد مما يحتمل، ومن ثم فإن الثغرات المتَّسعة باطِّرادٍ في فعالية الحج لا تعبِّر فقط عما تعانيه الأمةُ من انقسامات، بل وتزيدها سوءاً.

وبعد أن آلت السلطةُ إلى الجنرال مشرَّف في سنة 1999 حاول أن ينأى بفعاليات الحج عن المحسوبية ولو مؤقتاً. أدار شؤون الحج بصرامةٍ بادئ الأمر، فزادَ أعدادَ الحجيج إلى الحدود القصوى المسموح بها وفقاً للأنصبة النسبية المقرَّرة دولياً، وقسَّمَ المشاركةَ الإقليمية وفقاً لعدد سكان كلِّ إقليم. غير أنه ما لبث أن غيَّر مساره حالما فازت أحزابُ المعارضة الإسلامية بانتخابات سنة 2002 في الإقليم الشمالي الغربي الحدودي وإقليم بلوتشستان. ثم استعمل مشرَّف الحجَّ – شأن سائر حكَّام باكستان، عسكريّين ومدنيّين – لاجتذاب التأييد العِرقي والإقليمي. وبحلول سنة 2004 نال المسلمون من سكان المنطقة الحدودية المضطربة المجاورة لأفغانستان أكثر من نصابهم المقرَّر لهم في الحج، على حين نال سكانُ المنطقة الحدودية مع الهند أقلَّ من نصابهم وبخاصة في منطقة لاهور معقل نواز[43].

إن جوانبَ الاختلاف الديني في باكستان تتجاوز كثيراً الفروقَ الدقيقة في التوجُّهات الدينية التي تجعل الثقافات الأناضولية مثلاً تتمازج بانسيابيةٍ

غير ملحوظة. كذلك فإن الاختلافات بين مسلمي باكستان ليست ببساطة النزعات الصوفية في مقابل التوجُّهات الحديثة في إندونيسيا، حيث من المعتاد أن يتذاكر الجيرانُ المزايا النسبيةَ للقيام بحجَّةٍ ثانية بدلاً من التبرُّع لبناء المساجد أو المدارس.

والحج في باكستان صورةٌ لصراعٍ اقتصاديٍّ وسياسيٍّ بين أقاليم ومجموعاتٍ عِرقيةٍ متنافسة، وهو إلى جانب ذلك سلاحٌ آخر في المعركة لا هدنةٌ من الحرب.